بوابات الجحيم

THE HELL GATES

ميرنا المهدي

# روك آند رول

رواية

ساحر الكتب

# إهداء

إلى أمي التي علمتني كتابة الأحرف

وإلى مايا شقيقتي التي لم تشك ثرثرتي

وإلى أساتذتي الذين لم يبخلوا علىّ بعلمهم

وإلى كل من شجعني وآمن بي

وإلى الموهوبة تقى زكريا.

وإن أبت الشمس أن تبزغ،

سأظل هائماً بحبكِ.

- ليد زيبلين

# (١)

# ساكسفون

**يونيو، 2019**

قرع الدرامز، وطنطنة الجيتار الكهربائي، وظلمة الليل، ورائحة الزهور الصيفية، وحفيف أوراق الشجر، وصرير الباب، ونباح الكلاب، وحرارة الأنفاس اللاهثة، وذاك الشعور البغيض الذي يثقل الصدور، ثم أزيز الرصاص فحمرة الدم الدافيء.

هكذا كانت رؤية (موسى) الأولى عن هذا البيت، وهكذا أخبرهم:

الليلة ستُسفك الدماء بمنزل برتقالي يضج بموسيقى الروك أند الرول.

***

وقف (موسى أبو المكارم) بعضلاته المنتفخة وعروقه النافرة مع نديميه: (رأفت البلتاجي) الذي لا ينفك عرقه عن الانهمار من على جبينه العريض من فرط التوجس، و(زينب الراعي) الضئيلة التي لم تكف عن قضم أظافرها حتى أدمت أناملها.

بهذا المساء وكمعظم الأمسيات الآنفة، لازمتهم السيدة (روحية الشواف) المتشحة بالأسود من أخمصها وحتى رأسها التي برزت تعريجاتها الخارجة عن المألوف من أسفل شالها الصعيدي الذي جذبت طرفه بأصابعها الناتئة الواشية بشيخوختها.

كانت السيدة (روحية) – كالعادة – عازمة الليلة على مساعدة الرفاق الثلاثة لتصحيح خطأهم قبل أن يدفع ثمنه ضحية لا حول لها ولا قوة.

نفث (موسى) دخان سيجارته ثم كتم أنفاسها الأخيرة بطرف حذاءه الرياضي ليتركها هامدة أرضاً ثم التفت لباقي المجموعة وقال بصوته الأجش

- إنه البيت المنشود.

تأمل الأربعة الفيلا البرتقالية ذات الطابقين المتوارية بين نخيل وأشجار المعادي المزهرة.

كانت طلتها مبهجة أكثر من اللازم، أو هكذا شعروا، فيما عدا السيدة (روحية) التي صحيحٌ أنها فقدت بصرها ولم تتمكن من مشاهدة تفاصيل المنزل البصرية كباقي المجموعة ولكنها لم تفقد بصيرتها التي جعلتها متيقنة من أن شيئاً مفزعاً على وشك الحدوث بهذا البيت.

هذا إن لم يكن قد حدث بالفعل!

ثبّت (رأفت) نظره وربت على ذراع (موسى) قائلاً باستحسان

- أحسنت يا (موسى)، لقد قصرت علينا المسافات.

نظر (موسى) ليد (رأفت) الموضوعة على ذراعه مستنكراً حماسه الطفولي الذي يجرد هيبة غيهبان الليل وصمته الموحش، فأنزل (رأفت) يده محرجاً.

زفرت (زينب) وهى تداعب ضفيرتها المرتخية على كتفها الأيسر واعترضت مختالة بنفسها

- حقاً! (موسى) هو الذي قصر عليكم المسافات! أولست أنا التي جلبت لكم ملف قضية فيلا الروك أند رول فعرفتم منه العنوان بالتفصيل؟ أنتم مدينون لي بجزيل الشكر، يا سادة.

ربّع (رأفت) ذراعيه وأجابها بابتسامة و نبرة تنجحان دائماً في استفزازها

- إن كان هناك من ندين له حقاً بالشكر فهو (حسنين) ابن خالتك الساذج الذي يرى بك حسناً لا نتبيّنه ويستغل منصبه بأرشيف وزارة الداخلية ليهبك ما تريدين على طبق من ذهب.

ضربت الأرض بكعبها العالي وكرمشت أنفها لتنطق عيناها بغضب مبين

- ياللكَ من مقيت لا يجيد سوى التقليل من مجهوداتي و..

زفرت السيدة (روحية) راجية أن ينتهي جدالهم الطفولي الذي لا يماشي دقات قلوبهم الوجلة فصمتوا و التفتوا لها وهى تعدل نظارتها السوداء على عينيها اللتين خفت ضوءهما بسبب سبع وعشرين ضربة من مطرقة غاشمة هوت على جمجمتها منذ عهد فات

- إن صدقت رؤى (موسى)..

قاطعها )موسى( بكبرياء نفخ أوداجه

- وهو أمر مرفوغ منه.

- توقف عن مقاطعة الخالة قالتها (زينب) ثم حاولت أن تتهرب من نظرة (موسى) النارية التي حدجها بها: أكملي يا خالة.

- لا بأس، فلا وقت للحديث يا بنيتي، إن لم نسرع، سيسبقنا هذان المتعطشان للدماء.

اتخذت (روحية) من عصاها مرشداً، وهمت أن تدخل المنزل الأوروبي الطراز الذي لم يخفت ضجيج موسيقاه.

تقدمهم (موسى) متمسكاً بدور الذئب الألفا، وهو يدفع البوابة الثقيلة ولكن فور أن لمس حديدها البارد، أنكمش منكبيه العريضين واقشعر بدنه وكأن صاحبي البيت كهرباها.

تجاهل هواجسه وحاول أن ينظم أنفاسه التي تثقلت فور أن وطأ حديقة البيت، تلك الحديقة التي مشت فوقها (روحية) وكلها يقين أن هذا العشب الأخضر النضر ذا الرائحة المنعشة قد سُقِي بالدماء فيما مضى.

ساروا حيث انتشرت طاولات خشبية أنيقة تتجمع حولها كراسٍ ملونة ومزركشة تواكب صيحة السبعينات ذات الألوان البوهيمية الصارخة وكذلك كانت الأحرف البارزة باللوحة المعلقة فوق الباب الأمامي للبيت المكتوب عليها

مقهى فيلا روك أند رول

وضع (موسى) يده على الباب فانقبض قلبه وشعر بالمقبض يشتعل بين أصابعه فرفع يده سريعاً وأخذ يلوح كفه بالهواء عله يلطف الحرارة التي لسعت جلده الخشن.

حكّ (رأفت) رأسه الكبير الذي سمن من نهم القراءة ثم مسح عرقه بمنديله

- أهما بالداخل الآن؟

- نعم.. فلندخل من الباب الخلفي.

استداروا من الحديقة الخلفية التي لم تختلف كثيراً عن الأمامية من حيث الطاولات والأثاث على طراز الهبي، علّ الفرق الوحيد بالفناء الخلفي هو جثتان لطفلين ملقيين على وجهيهما وقد انفجرت الدماء من جمجمتيهما المتهشمتين اللتين اخترقتهما رصاصة حادة.

لم يبصر الجثتين غير (روحية) التي تسارعت دقات قلبها، فالموت والأرواح العالقة، هو كل ما صارت عيناها قادرتين على رؤيته بوضوح.

تظاهرت (روحية) بأنها لم تبصر هاتين الجثتين وحاولت أن تنظم أنفاسها التي اختلجت وحجمت رغبتها الشديدة في التقيؤ اتقاءاً لزيادة خور الشباب المرتاعين بما يكفي.

أكملت سيرها خلف (موسى) الذي استمر في قيادة المجموعة حتى الباب الخلفي المطل على المطبخ تماماً كما تبينه برؤيته.

لم يكن الباب موصداً، فدفعه سريعاً بقدمه وكأنه يرهب المقبض كحية قد تلدغه.

أصدر الباب صريراً مزعجاً أعلى من صوت الموسيقى الثقيل الذي ضغط على مسامعهم.

مروا من خلال المطبخ الأمريكي الطراز ثم تسللوا إلى الصالة التي كانت متجراً لبيع الآلات الموسيقية وهنا – وبعكس (موسى) و(روحية) – وقف (رأفت) و(زينب) مشدوهين، فـ(موسى) كان يعرف ما هو مقبلٌ عليه بسبب رؤيته و(روحية) لم تعد عيناها تبصران غير أرواح الموتى وليس مؤثراتها المشاكسة.

- ماذا ترون؟

سألتهم (روحية) فأجابها (رأفت) هامساً

- آلات.. آلات موسيقية تعزف نفسها.

عشرات الجيتارات كانت تعزف أوتارها أصابع خفية، وطبول تقرعها أيد مختفية، وكأن فرقة من الأشباح تقيم حفلاً صاخباً.

عضت (زينب) على شفتيها بقلق وهى تسألهم

- ألم تقولوا أنهما اثنان فقط؟ كيف لكل هذه الآلات أن تعزف نفسها؟

علّق (موسى) بلامبالاة

- هذه ليست سوى مؤثرات بصرية وسمعية خلقاها كي يرهبانا ويشعرانا أنهما مجموعة كبيرة.

تساءلت (روحية) بقلق

- أترون دماءاً؟

أجابها (موسى) بثقة: ليس بعد.

ترك (موسى) الطبول تقرع والجيتارات تعزف وأرشدهم للمكان المنشود.. القبو.

تأبطت (روحية) (زينب) لتهبطا الدرج على مهل. وتبعهما البقية

كان القبو غرفة سفلية تنقسم لنصفين من خلال باب زجاجي عريض عازل للصوت تماماً كباقي الجدران المغطاة بالقطيفة القرمزية الداكنة.

وجدوا بتلك الغرفة القابعة خلف الباب الزجاجي بالقبو – الذي لا يحتاج لخبير موسيقي ليجزم أنه يُستخدم كستوديو موسيقي – آلة أورغ كهربائي، وساكسفون، وجيتار كهربائي برتقالي صدأ، ودرامز متهالك، وجهاز هندسة صوتية، وطاولة عليها بعض النوتات الموسيقية، وميكروفون، وكلب ذهبي زغب وآخر لابرادور أبيض، وجثة دامية.

هذه المرة، لم تكن الجثة جزءاً من استبصار (روحية) الخارق للطبيعة، بل هو قتيل حقيقي مازالت دماءه دافئة

قانية في إشارة أنها لم تسفك منذ وقت طويل.

كان كلبا الضحية خاضعين أرضاً يرثيان مقتل صاحبهما برأسين منكستين كدراً عند قدميه.

وضع (موسى) يده على فم (زينب) كي يكتم صرخة كادت أن تهرب من بين شفتيها المكتنزتين.

- صه!.

لم تحتج (روحية) عيناها كي ترى جثة ذاك الثلاثيني المسكين الذي سقط جالساً بالزاوية بعد أن بوغتَ بوابل من الرصاص جعله ينزف الدماء الطّلاء السائلة من رأسه حتى أخمصه.

- اللعنة!

قالتها (روحية) وهي تزفر بينما وقف (موسى) ينظر للقتيل ثم لمح الساكسفون الذهبي المتروك على الطاولة بجوار النوتات الموسيقية.

اقترب من الساكسفون على مهل وأخذ يتأمل تفاصيله الذهبية التي ينعكس عليها الضوء النيون المرتعش ثم حمله بين يديه بحذر.

- لقد تأخرنا قلب الطاولة وما عليها من نوتات موسيقية

وساكسفون في ثورة عارمة وهو يصيح: متى سنتخلص من لظى هذا الجحيم!.

أجابته (روحية) غاضبة

- إنها عاقبة اللهو مع الأرواح والعالم السفلي.

علق (رأفت) بسفسطته المعتادة

- لا تلوميني، لو لم يستهتر (موسى) بقواعد جلسة تحضير الأرواح، لما انهالت علينا تلك الأشباح اللعينة ولما صرنا مهددين جميعاً بالقتل.

كوّر (موسى) قبضتيه وضربهما ببعضهما ناظراً لـ(رأفت) بوعيد مصارع محترف

- ألم تكن فكرة استحضار روح قاتل متسلسل هى فكرتك من الأصل يا أبو المعارف؟.. الآن تود أن تلصق بي الأمر وتجعل الخطأ خطئي وحدي؟

ابتلع الأخير ريقه بصعوبة موضحاً

- كلا البتة، أنا فقط..

- حضرا.

همستها (روحية) باللحظة التي نبح بها الكلبان المكلومان

مجدداً حين عزف الجيتار نفسه وقرعت الدرامز ذاتها.. هذا ما رآه (رأفت) و(زينب) وحتى (موسى) ولكن ما أبصرته (روحية) كان مختلفاً.

نهشتها القشعريرة الملازمة لتلك الرعشة التي تباغتها كلما ظهرت روحاً غاضبة وشاردة أمامها، فخلعت نظارتها السوداء متجاهلة الخدر المسيطر على مفاصلها، وشاهدت بعينها الأثيرية الشبحين الموسيقيين.

رأت نفس ما رآه عازف الساكسفون قبل أن يلفظ أنفاسه الأخيرة، روح شابة ماتت برصاصة ثقبت مؤخرة رأسها وأخرى بقلبها، جالسة على كرسي أمام الدرامز الذي تقرعه بخفة وسرعة بينما تطير أنامل شاب عارٍ ذي وجه شاحب وعروق بارزة على أوتار جيتاره ويغني بالإنجليزية.

كان العازفان مغلقي العينين لانسجامهما بمعزوفتهما التي أتى إيقاعها مزعجاً ثقيلاً يخنق كل من بالقبو.

دار عازف الجيتار حول نفسه وطوّح ذراعه بالهواء وهو يضرب أوتاره بقوة ليَخرُج صداها جاثماً على أنفاس الموجودين.

ارتعشت (زينب) و استندت على الحائط شاعرة بإرهاق شديد، وترنح رأس (رأفت) بينما تباطأت أنفاس (موسى)

أما السيدة (روحية) المسنة، ظلت ساقيها ثابتتين كالوتد وكأن ما من شئ يدور حولها ودست يديها بجيبي جلبابها الفضفاض وكلمتهما بصوت واضح

- أنتما (تيمور) و(جيهان)؟

توقفا عن العزف وفتحت (جيهان) عينيها لترمق (روحية) بغضب تقشعر له الأبدان.

صاحت (جيهان) ناهضة عن الدرامز

- أنتم غير مرحب بكم بهذا المنزل.

خلع (تيمور) جيتاره ووضعه جانباً وتكلم بتراخٍ

- عزيزتي، لِمَ لا تهدأين وتتركين السيدة العجوز تكمل حديثها؟

- لن أنصت لترهاتها، فلترحل وإلا جعلتها تلحق بذاك الوغد الملقى بالزاوية.

استغلت (روحية) فرصة ذكرها لقتل ذاك المسكين فسألتها

- ولِمَ قتلته؟ أى جرم ارتكب؟

ابتسمت لها (جيهان) وقد اشرئب عنقها فخراً

- لقد تحداني.

ثم لم تخجل من أن تقص عليهم ما حدث بهذا القبو منذ أقل من ساعة.

***

جلس عازف الساكسفون (كريم صقر) بالقبو وقد ظن أن كلبيه سيكونان خير خليل له بتلك الأوقات العصيبة، ولكنهما فشلا في ملء الوحدة التي خَلَفَها غياب زوجته وابنته الوليدة.

زفر بعصبية وحاول أن يصب تركيزه على موسيقاه. حفظ النوتة ثم أخذ نفساً عميقاً وبدأ ينفخ الساكسفون ولكنه لم يكن بالمزاج المناسب فلم يتقن العزف وحاد عن اللحن أكثر من مرة إلى أن توقف.

لا، لم يترك الساكسفون منتفضاً ومتلفتاً حوله كالمجذوب لعزفه الشاذ عن النوتة، بل ما أربك دقات قلبه هو زمجرة كلبيه العنيفة المفاجئة والتي ضد طبيعة (فريدي) و(جاكسون) المسالمة، فقد بدآ ينبحان بقوة وهما يتراجعان للخلف حتى التصقا بالحائط.

صحيحٌ أنه شعر بثقل غير طبيعي يطبق على صدره، وفاحت رائحة سكرية غريبة بالمكان غزت أنفه حتى أسالته، واستشعر أنفاساً حامية تُنفَخ بمؤخرة عنقه وخلف أذنيه

حتى أصابت سخونتها بدنه بالقشعريرة وأربكت أمعاءه إلى أن أصدرت أطيطاً جعل رأسه يترنح كمن أصابه دوار البحر، إلا أن طبيعته المجادلة ومعتقداته العلمية، أجبرته على أن يميل للإيمان بوجود تفسيرات منطقية لتلك الهواجس المراوغة التي قرأ عنها في روايات ستيفن كينج بأيام مراهقته.

ما أطرح حقاً تفكيره المنطقي المنمق أرضاً وجعل الأفكار الميتافيزيقية تتسل إلى عقله، هو عجزه عن تعليل حركة كلبيه وهما يهزان رأسيهما يميناً ويساراً نابحين على كيان خفي حتى استقر نظراهما عند الجيتار الصدئ والدرامز المتهالك فارتشعت المصابيح خوفاً وإذ بهاتين الآلتين تعزفان نفسيهما بحدة مبرحة.

ضجت موسيقى الروك أند رول بالقبو العازل للصوت ولعب الموسيقيان الخفيان مقدمة أغنية يعرفها (كريم) بحكم حبه ودراسته لموسيقى الروك أند رول.

حدسه الموسيقى لم يخنه، إنها مقدمة أغنية Whole Lotta Love لفرقة ليد زيبلين ولكنه ذكر نفسه بأن الوقت ليس مناسباً لاختبار حسه الموسيقي.

الآن فقط تيقن من شئ واحد.

لم تكن زوجته تهذي.. القبو حقاً مسكون!

أبى أن يهرب كما فعلت زوجته، وقرر أن ينهي الأمر ويعلن هيمنته ويفرض سيطرته على أرضه ويواجه هذا الكيان المشاكس اللعين.

استجمع قواه ووقف صوب الجيتار والدرامز وصرخ بنبرة قاوم أن تخرج من فمه بلا رعشة ولكنه فشل في السيطرة على هزة صوته ورجفة قبضتيه

- أعرف أنكما هنا.. وفلتعلما.. فلتعلما إني لا أهابكما.

انتظر أن يراهما ولكن ظلت الآلتان تعزفان نفسيهما فحسب.

- أعرف ما تريدانه ولكني لن أنولكما إياه.. مهما حاولتما إرهابي فأنا لن أترك لكما منزلي.

توقفت الموسيقى.

ساد صمت مربك وطغى سكون مرعب وكأن كل شئ توقف، دقات الساعة، حركة الناس، صوت الهواء وحتى دوران الأرض.

- أواثقٌ؟

قالها صوت أنثوي رفيع أتاه من الخلف.

خرعته نبرتها قبل حتى أن يلتفت ليرى وجه صاحبتها التي فور أن لمح ملامحها، بُهِت.

كانت شابة بمقتبل الثلاثينات مرتدية سروالاً من الجينز الضيق وسترة رياضية من الستان اللامع تتدرج ألوانها من الأزرق الفاتح وحتى البنفسجي الفاقع.

صيحة ملابسها القادمة من حقبة الثمانينات، لم تكن ما أرعب (كريم) من مظهرها، بل إنها الدماء المتقطرة من شعرها الأشقر المشدود لأعلى كذيل حصان كاشفاً عن ثقب عميق اخترق مؤخرة رأسها وآخر يماثله بشاعة يتوسط صدرها لينتج عنهما زُرقة رمادية تفشت بجلدها حتى سيطرت على معظم ملامح وجهها.

تلى ذلك، ملاحظته لعصي الدرامز الخشبية التي تقبض عليها بأصابعها الطويلة وبندقية صيد البط المتدلية على ظهرها ولم يفته أن كعبها مصبوغ بالدماء المتجلطة.

شعر بالوهن يمتطي ركبتيه ولكنه لم يقوَ على أن يبعد نظره عنها وكأن مقلتيه التصقتا بوجهها المشوه حتى زفرت بضيق وكلمته بنبرة معاتبة

- كان عليك أن ترحل مع زوجتك.. لِمَ يعاند الرجال زوجاتهم؟

- أنا لم أعاندك يوماً.

قالها (تيمور) الواقف بجوار الدرامز المتهالك.

التفت (كريم) الوجل مرة أخرى ليراه، كان ثلاثيني، طويل القامة، حليق الرأس، حافي القدمين، عاري الجذع، يزين صدره وشم لشعار فرقة ليد زيبلين، يرتدي سروال منامة قطنية برتقالي مزركش بنقوش هندية.

قد يبدو طبيعياً أو على الأقل غير مشوه كزوجته حاملة البندقية، ولكن حين نظر له عن كثب متفرساً ملامحه، انتبه لوجهه الشاحب وشفتيه الزرقتين وعروقه الحادة الناتئة لدرجة تكاد أن تخترق جلده المائل للون البنفسجي وأظافره الصفراء وعيونه الذابلة الخالية من الحياة فزُرِعَت الرهبة بقلب (كريم).

التفتت (جيهان) لزوجها وأجابته بنبرة حنونة

- لم أكن أعنيك يا عزيزي.. أنا أخاطب ذاك العاهر المصمم على إغضابي.

حمل (تيمور) الجيتار الصدئ وداعب أوتاره بريشته اللامعة وهو ينصح (كريم)

- إياك وغضب (جيهان)، يا فتى.

قرعت دقات قلب (كريم) العنيفة صدره وكاد أن يبلل سرواله في حضرتهما ولكنه – وكباقي مواليد برج الثور – عنيد لا يعرف حدوده.

- أنتما.. أنتما شبحان، لقد قرأت عن الأشباح على الإنترنت.. لستما سوى طاقة كهرومغناطيسية لا قوة فيزيائية لها.

عدّل عازف الجيتار أوتاره ثم سأل (كريم) المرتعب بفضول

- ما هو الإنترنت؟

- عزيزي، ألا تظن أن الآوان قد فات على تثقيف ذاتك التفتت (جيهان) إلى (كريم) وهي تداعب عصى الدرامز فتلقيهما بالهواء ثم تتلقفهما ببراعة: فلتعتبر هذا تحذيرك الأخير.. ارحل!.

تضاعفت أنفاس (كريم)، ولكنه استبأس وحاول أن يستجمع قواه مجدداً

- لن أرحل. ليس بعد أن وضعت كل ما أملك بهذا المشروع.. لن أترك لكما مجالاً للتلاعب بأفكاري وإثارة الهلاوس بعقلي لإخافتي كما فعلتما بزوجتي.

ضحك عازف الجيتار ساخراً وقال لـ(كريم)

- صدقني يا صاح، هذا البُعد الزمني أو أياً كان ما نحن به

أعطى (جيهان) قوى خارقة رهيبة. فلتنصت لتحذيراتها فإنها لقادرة على ما هو أكثر من التلاعب بأفكارك.

ضرب بضعة أوتار عالية أتى صوت طنطنتها ثقيلاً مؤلماً ثم سأل (كريم)

- لِمَ لا نحل الأمر بشكل سلمي! أرى أنك موسيقياً مثلنا.

هزّ (كريم) رأسه متردداً

- بلى.

- إذاً.. لِمَ لا نعزف معاً القليل من موسيقى الروك أند رول؟

زفرت (جيهان) بضيق ونظرت لزوجها معترضة.

لم تمهل (كريم) فرصة قبول عرض زوجها من عدمه.

اخترق مسامع (كريم) أزيز الرصاص المنطلق بشكل متواصل من بندقيتها مختلطاً بعواء كلبيه وموسيقى جيتار عازف الروك أند الرول بالزاوية يعلو طنينها.

***

بُهت الجميع من بشاعة القصة بينما استمرت (جيهان) في مراقصة عصي الدرامز بين أصابعها باحترافية وهى تقول

- إن كنتما تشتهيان نهاية مغايرة، فلا داعِ لإغضابي.

أجابتها (روحية) بهدوء نيابة عن المجموعة المرتعدة

- لسنا هنا لإغضابكِ، أعدك أننا سنرحل عن منزلك مادام غير مرحب بنا، ولكن ألا تودين أن تعبري للعالم الآخر يا (جيهان) بدلاً من أن تظلي عالقة هنا حيث لا جسد ولا خلاص لكِ؟

سألها (تيمور) متعجباً

- عن أى عالم تتحدثين، يا سيدتي؟

- العالم الذي استدعيتما منه خطئاً.. لم يكن من المفترض أن تتركا مرقد روحكما.

أشار لها (تيمور) بشكل بوهيمي متراخٍ

- أتقصدين تلك البوابة الغريبة والضوء المريب الذي ابتلعنا؟ أهذا ما نقلتنا إليه؟ عالم البشر الرتيب؟ زفر محبطاً مربعاً ذراعيه: سحقاً، ظننتها مركبة فضائية أو بوابة كونية.

تجاهلت (جيهان) تحليل زوجها الطفولي وسألت (روحية)

- ماذا تقصدين باستدعيتمونا خطئاً؟

- نقصد أنكما توفيتما منذ أربعين عاماً. أعلم أن البقاء طويلاً بعالم البرزخ يغير طباع المرء ويثير حفيظته.. لا عتب على مزاجك المتعكر وسلوكك الغاضب ولكن أعذريني،

لقد أنهيتما مدتكما بالحياة الدنيا وحان وقت المضى قدماً لتكتشفا مثواكما بالعالم الآخر.

- مهلاً قاطعها (تيمور): نحن موتى؟

زفرت (جيهان) واضعة يدها على رأسها بعد أن أرهقتها بلاهة زوجها

- بالطبع نحن كذلك يا (تيمور)، أولم تلحظ هيئتي؟

- أنتِ ميتة بحق؟ أنا لست بكابوس سينمائي؟ أصابه الفزع فجأة: نحن حقاً موتى؟

همست (جيهان) لنفسها: يا إلهي.. عزيزي، سأفسر لك الأمور لاحقاً.

- انتظري، أتدركين بشاعة ما تقوله هذه السيدة، يا (جيهان)؟ إن لم يكن هذا كابوس، ونحن حقاً أرواح عائدة من الموت إلى العالم البشري الحقيقي الذي كنا جزءاً منه يوماً، هذا يعني أننا..

قاطعته بحسم: نعم يا عزيزي، لقد قتلنا ذاك الوغد المتعجرف وسنفعل الأمر نفسه مع هؤلاء الأربعة إن لم يرحلوا عن بيتي على الفور.

قالتها بصدي مرعب حتى تخيف (روحية).

همس (موسى) – الذي أنصت لحديثهما بشكل تخاطري – إلى (روحية) قائلاً

- أنها لا تمازحنا، هالتها قاتمة وستقتلنا حقاً إن لم نرحل.

تجاهلته (روحية) ولاقت غضب (جيهان) وتهديدها بحكمة

- سنرحل، كما وعدتك، ولكن قبل رحلينا، ألا تودين أن تعرفي من أصابك بهاتين الرصاصتين اللتين أودتا بحياتك؟

أندفعت (جيهان) صوب (روحية) وقد اشتاطت غضباً

- أتعرفين قاتلي؟

صاح (تيمور) بـ(جيهان) وكأنه سيفقد عقله

- أنتِ قُتِلتِ؟ لِمَ؟ ومتى؟ وكيف؟ (جيهان) عزيزتي، أتوسل إليكِ أخبريني أن هذا ليس أكثر من كابوس مقيت.

زفرت (جيهان) وربتت على كتف (تيمور)

- الصبر يا عزيزي التفتت إلى (روحية) مجدداً: أتعلمين حقاً من قتلني؟

- بلى، إنه من اخترتِ أن تظلي عالقة معه بهذا العالم السرمدي.

صاحت بها: تكلمي بوضوح وإلا سلبتك روحك على الفور.

أشارت (روحية) صوب (تيمور) الذي كان منصتاً باهتمام.

- (تيمور).. زوجك.

- ماذا؟ قالها (تيمور) وقد تبدلت ملامحه من الفضول إلى الصدمة: أنا؟ مستحيل! التفت لزوجته خائفاً و ارتعد صوته و ارتعشت يداه: أنا قتلتك يا (جيهان)؟ أفعلتها مجدداً؟

لأول مرة، تحولت ملامح (جيهان) من الغضب المتقد إلى الرفق واللين وهى تحيط وجه زوجها بكفيها لتسكن مخاوفه

- كلا يا عزيزي، أنت لم تقتلني.

قاطعتهما (روحية)

- بلى هو قاتلك، لقد قرأنا ملف جريمة مقتلك، وقد تبين أن...

- صه أيتها العاهرة!.

قالتها (جيهان) وبدأت الأرض تهتز من أسفل أقدام الأربعة، أو بمعنى أصح، هذا ما صورته لهم متلاعبة بأفكارهم، خالقة لهم هلاوس حسية متقنة التفاصيل.

نبح الكلبان وتكورت (زينب) بالزاوية بينما حاول (رأفت) الخروج ولكن الباب كان موصداً بقوى خفية.

كانت تدرك (روحية) حيل أمثال (جيهان) جيداً، وعليه لم تنصغ لتلك التخاريف التي خلقتها لهم.

ظلت راسخة الأقدام وهى تشاهد (جيهان) تعانق زوجها بحنان كي تحتوي ذعره، وإذ به يهمس لها بنبرة وجلة

- أخرجيهم.. أخرجيهم بحق الجحيم.

لم تتوان.

أنزلت (جيهان) بندقيتها عن ظهرها وتحركت بسرعة مباغتة صوب (روحية) وهى تصرخ بصوت يصم الآذان و يلكم القلوب رعباً

- اخرجوا من بيتي.

صاح بها (تيمور) حين أشهرت بندقيتها

- بلا دماء يا (جيهان)!

لم تنصت (جيهان) لزوجها ضاربة بتحذيره عرض الحائط وبدأت تجهز سلاحها ولكن (روحية) كانت أسرع منها.

أخرجت كفيها من جيبي جلبابها الداكن وراحتاها ممتلئتان بملح اليود الخشن وألقته صوب (جيهان) و(تيمور) وهى تصيح بقوة

- الله خير حافظ.

في غمضة عين تبخرا.

اختفت (جيهان) و(تيمور) وتوقفت موسيقى الروك أند رول وسكنت الأرض وكف الكلبان عن النباح وخفّ الهواء وهدأت دقات القلوب.

سمحت (روحية) لنفسها أن تشعر بالوهن وتهوي أرضاً وأنفاسها تتسارع.

ركض (رأفت) صوبها ليسندها بينما سألتها (زينب) مرتعدة

- أرحلا؟

بأنفاس متهدجة، ودقات قلب متصارعة أجابتها (روحية)

- ليس بعد.

# (٢)
# أورغ

بكت النساء بالشقة، وأدى الرجال واجب التعزية بالصوان المنصوب بالشارع.

باليوم الأول، حضر الجميع وبالثاني عرج نصفهم وبالثالث فُض الصوان وصارت التعازي تقدم بصالة الشقة الفسيحة حيث جلست عازفة الأورغ (مليكة عزيز) وأسفل قدميها الكلبان (فريدي) و(جاكسون) وبين ذراعيها طفلتها ذات الأسبوعين التي تيتمت وحرمت من أبيها بعد ميلادها بليلتين.

لم تكن (مليكة) – التي لم ينشف دمعها – جالسة بالصالون بين أبيها الطبيب (نبيل عزيز) صاحب مشفى العزيز للنساء والولادة ووالدتها (مديحة شكري)، لتقابل هذه الشرذمة من المعزيين، بل لأن فكرة جلوسها بأى مكان بمفردها صارت ترعبها بعد ما شَهدَته خلال اليومين المنصرمين.

صحيحٌ أنها لم ترَ جثة (كريم) التي مزقتها رصاصات (جيهان) المسعورة، ولكن يكفي أنها رأت (جيهان) نفسها ولهو منظر كفيل بأن يجعلها تنام بعين مفتوحة لِما بقي من عمرها.

***

بالسادسة مساءاً، انصرف المعزون جميعاً وبقت (مليكة) المكلومة بالصالون ترضع ابنتها (صولا) والدموع تنزلق على وجنتيها لتسقط على وجه صغيرتها فتمسحها بأناملها وتحاول أن تتماسك، على الأقل حتى تنهي إرضاع وليدتها.

رن جرس الباب بغتة فارتجفت.

- إنه الباب فحسب يا صغيرتي، لا تخافي.

قالها أبيها ناهضاً عن مقعده متجهاً للباب وحين فتحه وجد أكثر شخصين مهذبين من الأربعة.. (رأفت) و(زينب).

***

قدما نفسيهما كصديقين قديمين لـ(كريم) فلم يرتب الأب ولكن حين قالا الجملة نفسها لـ(مليكة)، قطبت حاجبيها تعجباً.

- المعذرة، ولكني لم أراكما من قبل، أنا و(كريم) جاران وزميلان بالفصل نفسه منذ الروضة وحتى تخرجنا في الكونسرفتوار. يستحيل أن أغفل أحد أصدقاءه.

تنحنح (رأفت) وفسر هامساً بكذبة حبكها جيداً هو و(زينب) قبل أن يأتيا لهذا المنزل

- حسناً، سأصدقك القول، لسنا صديقي (كريم)، وفي الواقع، لم نقابله يوماً، ولكنه استعان بنا.. لقد هاتفنا قبل موته بسويعات كي نمشط المنزل ونحرره من.. أنتِ تفهمين.

- مِمَ؟

همست (زينب) بطريقة سينمائية مبتذلة

- من الأرواح الملعونة.

شهقت (مليكة) ووضعت يدها على فمها وبكت بغزارة

- لقد أصر أن يظل بالمنزل.. أخبرته أنهما سيؤذونا ولكنه لم ينصت لي.

اقتربت منها (زينب) وربتت على كتفها متعاطفة معها بينما أردفت الزوجة المكلومة

- مازلث لا أفهم ماذا حدث.. لقد عشنا بهذه الفيلا لعام كامل لم أر به ما هو خارق للطبيعة ولا أية أشباح لعينة. لِمَ ظهرا وغضبا فجأة من وجودنا؟.

- لأنهما لم يأتيا لعالمنا قبل هذه المدة.. تلك البوابة لم تفتح سوى منذ فترة قصيرة.

- ولِمَ فُتحث؟ لِمَ تَيَتّمت ابنتي بعد مولدها ببضعة أيام؟

- نأسف لخسارتك.. هوني عليكِ.. نحن هنا لمساعدتك.

- لقد فات الآوان.. هاذان الشيطانان سلباني زوجي وحب حياتي.

حك (رأفت) أنفه الحاد معلقاً

- علّ الآوان قد فات بالنسبة لـ(كريم) ولكن ماذا عنكِ وصغيرتك؟

- ماذا تعني أمازلنا بخطر؟

- لستُ واثق، ولكن مما لا شك فيه أنه يجب أن نصرف هاذين الطيفين المتوحشين عن عالمنا نهائياً.

- وكيف لي أن أساعدكما في هذا؟ لستُ بمشعوذة ولا بوسيطة روحانية.

- ولا نحن.. الأمر منطقي بحت، نحتاج فقط أن نستوضح منك بعض الأمور عنهما.

جففت دموعها وحاولت التماسك كي توضح لهما

- لا أعرف عنهما الكثير. كل ما في الأمر أننا وددنا بدء مشروع موسيقي، ولكننا تشتتنا بين فكرة افتتاح متجر للآلات الموسيقية، أو كافيه لعشاق الموسيقى، أو ستوديو يؤجر بالساعة للفرق الشبابية المستقلة.. حين عرضنا الأفكار

على أمي اقترحت علينا أن نستغل فيلا عمتي الراحلة (جيهان عزيز) التي ورثها عنها أبي بالتبعية.. لم أكن أعرف من قبل أن لدينا فيلا فسيحة بالمعادي، بل لم أكن أعلم أى شئ عن عمتي من الأصل فاسمها لم يُذكر بمنزلنا سوى مرة أو اثنتين، ولكن بعد أن انتقلث مع (كريم) لهناك، فهمث لِمَ لم يكلمني أبي عنها مسبقاً..

***

## مايو، 2018

حملا أحلامهما الشابة وزارا الفيلا البرتقالية للمرة الأولى.

كانت ظهيرة صيفية هادئة، ضياءها مبهج، وحرارة نجم صباحها معتدلة وعلياءها صافية، وبلابل المعادي تغرد على أغصان الشجر حول الفيلا التي هُجِرَت منذ عام ١٩٨٠.

خلق هدوء المنطقة الذي لا يقاطعه سوى زقزقة العصافير، جواً حميمياً حمس (كريم) و(مليكة) وهما يفتحان البوابة الحديدية ليطآ الفيلا للمرة الأولى.

مرا من الحديقة حتى الباب الأمامي ثم دخلا البيت لتقابلهما رائحة العطن والتراب الثقيلة.

أشعل (كريم) الضوء، فالشبابيك الموصدة والستائر

المخملية منعت ولوج نور الشمس للداخل، ولكن حين أنير المكان، استطاعا أن يريا تفاصيله اللطيفة.

ورق الحائط المزركش الذي يغلب عليه اللون البرتقالي، والأرضية الخشبية التي قاومت متانتها الزمن دون أن تأز واللوحات البوهيمية ذات الألوان المبهجة المعلقة على الجدران.

تحمست (مليكة) وقامت برفع الملاءات البيضاء التي تغطي الأثاث لتكشف ذوق عمتها الجامح، كل قطعة أثاث لها لون ونمط مختلف، هذه مزركشة بالأصفر والأزرق وتلك بالأخضر والبرتقالي وهذه بالأحمر والأبيض.. كان منزل ينبض بألوان الحياة.

حك (كريم) رأسه وهو يتأمل الفيلا الفسيحة.

- المكان مذهل.. لا أفهم لِمَ عارض أباكِ أن نقطن بهذه الفيلا؟

نفضت (مليكة) التراب عن كفيها مجيبة

- لا فكرة لدي، ولكن دعك الآن.. فلنتفقد باقي الغرف.

انسلا لأول غرفة بالقرب من الصالة وحين ولجتها (مليكة)، شُدهت.

كانت صارخة الألوان، عُلِقَ على حوائطها اسطوانات جرامافون ضخمة في إطارات خشبية جميعها لفرقة ليد زيبلين البريطانية، وبين كل أسطوانة وأخرى غلاف عملاق للفرقة ذاتها والأعظم بالنسبة للزوجين العاشقين للموسيقى هو وجود جيتار كهربائي صدئ الهيئة برتقالي اللون مستنداً على درامز أحمر لامع ضخم مصاب ببضعة خدوش.

اقتربت (مليكة) من الزاوية حيث وقفت طاولة من الزان تتراص عليها صوراً بالأبيض والأسود لفاتنة شقراء طويلة الشعر تقرع الدرامز بشغف وبجوارها رجل جذاب يعزف الجيتار الكهربائي ويغني بالمايكروفون هائماً وشعره الأسود منسدلاً على وجنتيه وصولاً لكتفيه.

هكذا اكتشفت (مليكة) أن الإنسان لا يرث من أهله الملامح فحسب، بل كذلك قد تتسلل هواياتهم وميولهم لحمضك النووي.

- (كريم).. عمتي وزوجها كانا يعزفان الروك أند رول مثلنا!.

في غضون أشهر، انتقل الزوجان للسكن بالدور العلوي بالفيلا وعدلا الكثير بالدور السفلي حيث كسرا جدران غرفة الروك أند رول الخاصة بـ(تيمور) و(جيهان) ليضماها للصالة التي صارت متجراً لبيع الآلات الموسيقية، بينما جعلا القبو ستوديو عازلاً للصوت ووضعا به الدرامز القديم والجيتار

الصدئ باعتبارهما أنتيكا وتميمة حظ.

أمضيا النهار في تقديم القهوة وإعداد الشطائر بنفسيهما لمرتادي المقهى الذي ذاع صيته بالمنطقة باسم مقهى فيلا روك أند رول، وقضيا الليل يعزفان ويسجلان موسيقاهما بالقبو حيث ينفخ (كريم) الساكسفون وتعزف (مليكة) الأورغ الإلكتروني.

كانت أيام هنيئة هادئة، يملأها الدفء والطموح والكثير من موسيقى الروك أند رول حتى مر عام كامل على وجودهما بالفيلا وحملت (مليكة) بمولودهما الأول.

ساحر الكتب

***

بالليلة التي أنهت فيها شهرها الثامن لتبدأ التاسع، أسندت بطنها المنتفخ على وسادتها المريحة وغطت في نومٍ عميق لم يقاطعه سوى نباح كلبي زوجها (فريدي) و(جاكسون) بشكل هستيري ليرافق ذلك صوت قرع درامز وطنطنة أوتار جيتار كهربائي.

كانت الثالثة فجراً، فتساءلت من ذا الذي يعزف بمنزلها بهذه الساعة لينتهك سكينة نومها؟

تقلبت بفراشها فلم تجد (كريم) يجاورها. خمنت أن العازف غير المبالي بتأخر الساعة هى فرقة ما أجر لها (كريم)

الستوديو وعلى الرغم من عدم منطقية تخمينها، إلا أنها عجزت عن تحليل كيفية وصول ضجيج هذه الموسيقى الحادة لمسامعها مخترقة جدران القبو العازلة للصوت.

تركت سريرها وتحسست بطنها وهى خارجة من الغرفة حين راودها شعور غريب بأن هناك من يتبع خطاها المترنحة من شدة النعاس.

تجاهلت هذا الشعور الأبله وأكملت طريقها ولكن كلما اقتربت لمصدر الصوت شعرت بالهواء يتثاقل، والوقت يتباطأ، وبدنها يقشعر وضربات قلبها تتسارع ورائحة سُكرية غريبة تملأ المكان.

ظنته دوار الحمل الذي يكتنفها كلما استيقظت أو نهضت فجأة.

- (كريم)!.

لم تلقَ رداً فنزلت السلالم المؤدية للصالة على أية حال وهى تفكر في مدى بلاهتها وأن من الطبيعي ألا يجيبها (كريم) إذ أنه لن يسمعها إن كان حقاً بالقبو العازل للصوت.

كانت الصالة مظلمة وفارغة ومرتبة تماماً كما تركتها قبل أن تنام، وعليه تيقنت أن ما من زائر ولج بيتها وأن العازف بالقبو هو (كريم) بلا شك.

نزلت السلالم المؤدية للقبو وإحساسٌ غريبٌ بالاختناق يكتنفها وكأن جاثوماً يرقد على صدرها.

نزلت القبو وفتحت الباب لامحة من خلف الزجاج خيال رجل تتأرجح رأسه على إيقاع ما يعزفه.

أقسمت أن تصب إرهاقها كله على (كريم) الذي قرر أن يعزف الجيتار بالظلام الحالك غير مبالٍ بإيقاظها في هذه الساعة.

دخلت وصاحت غاضبة وهي تشعل الضوء

- ألا ترى أن الوقت متأخر على عزف الروك أند رول؟

- كل ساعة هي ساعة للروك أند رول، يا حلوتي.

أجابها دون أن يرفع أصابعه عن أوتار جيتاره الصدئ.

كاد قلبها أن ينخلع من مكانه حين حلّ النور ورأت الحقيقة.

كان ميت العينين، ذابل البشرة، ناتئ العروق الزرقاء، أصلع رأس، وجهه شاحب ومُقبِض.

لم يفتح عينيه وأكمل تمتمته منتشياً ببراعة عزفه

- أوتعرفين يا (جيهان) لطالما كنتِ محقة، انقطاعي عن عزف الروك أند رول هو الذي أفسد حياتي، بمجرد أن لمست

الأوتار، لم أعد أهاب شيئاً.. أظنني تخطيث كل مخاوفي .. لقد فعلها الروك أند رول وأعاد قلبي للنبض يا صغيرتي.

لم تفهم (مليكة) ما يدور حولها ولكنها أرادت أن تصرخ حتى تنشق رئتيها ولكنها لم تجد صوتها.

تراجعت ولكنها أرتطمت بشئ كتم أنفاسها للحظات وكاد أن يوقف دقات قلبها كلياً فألتفتت.

بدماء متجلطة تغطي عنقها ومؤخرة رأسها وأنفها وصدرها، وبتشوه جلدي أصاب وجهها كله، ابتسمت لها بِشَر وهى تراقص عصى الدرامز بين كفيها

- عزيزي، أنا دائماً على حق.

هنا وجدت (مليكة) صوتها.

صرخت بكل ما أتيت من قوة وهرعت صوب الباب بينما ابتسمت (جيهان) متهكمة وهى تقول

- جبانة!.

اتجهت (جيهان) نحو الدرامز لتجلس واستعدت للعزف بينما حاولت (مليكة) أن تفتح الباب ولكنه كان موصداً بقوة مظلمة تود أن تبقيها أسيرة بالغرفة العازلة للصوت.

رفعت (جيهان) العصاتين بالهواء وضربتهما ببعض وهى

تُعِد استعداداً لمعزوفتهما الصاخبة

- واحد، اثنان.. واحد، اثنان، ثلاثة، أربعة.

ضربت الدرامز بقوة كادت تدمي أذني (مليكة) ليتبعها تحليق أصابع (تيمور) على أوتار جيتاره وهو يغني بطبقة صوت عالية ورفيعة تتطابق صوت المغني الرئيسي لفرقة الروك الشهيرة ليد زيبلين

- مضى وقت طويل منذ أن عزفتُ الروك أند الرول.. مضى وقت طويل منذ رقصتُ رقصة 'السترول' أووه يا عزيزتي، دعيني أستعيد ذلك.. فلقد مضى علي وقت طويل وموحش.

كان وقع الموسيقى الحادة على (مليكة) كوقع الغاز السام الذي هيمن على غرف التعذيب النازية.

اشتد قرع (جيهان) على صاجات الدرامز وضرب (تيمور) على أوتار جيتاره وهو يغني.

لهثت (مليكة) وضربت الباب بكل ما أوتيت من قوة وهي تبكي وتصرخ

- كريييم! كريييييييم!

كان العزف مؤلماً و خانقاً وصارت الموسيقى كمجسات وحش تسحب الأوكسجين وتمتص الحياة من (مليكة).

اندفع السائل الدافئ من بين ساقيها بغتة، وإن كانت مفزوعة بسبب الشبحين العازفين للموسيقى خلفها فهى الآن منهارة لأنها بلغت المخاض وعلى وشك الولادة.

لم تعرف ما الحل وما التصرف، وهنت ركبتيها ولانتا كالمطاط فسقطت أرضاً خلف الباب.

غطت أذنيها بكفيها ولم تعد تتمنى أى شئ بالحياة سوى أن يتوقف عزفهما الذي نهش حواسها وأن تختفي موسيقى الروك أند رول للأبد.

# (٣)

# صولا

***يونيو، 2019***

كانت تحلق فوق سطح معدني بارد ومن فوقها هالات بيضاء تسطع ثم تبهت وعلى يمينها ويسارها رؤوس تحوم حولها.. وحين تبينت أصحاب هذه الرؤوس ارتاحت.

ذاك رأس (كريم) زوجها، وهذا لـ(نبيل) أبيها، وذاك لـ(مديحة) أمها ولا تعرف من هذين الآخرين.

لا يهم، المهم أن (كريم) أمامها، قد تكون هذه آخر لحظاتها على الأرض، لذا يجب أن تخبره حتى لا يصيبه ما أصابها.

- القبو.. القبو مسكون.

قالتها بصوت خافِت تجهل إن كان قد وصل لمسامع زوجها الذي يركض بجوارها في محاولة لمجاراة سرعة ذاك السطح الطائر كالبساط السحري.

تداخلت الملامح والمعالم ولم تعد الرؤية واضحة وخفتت الأصوات وسكن شعورها بالحركة وعم الصمت هو وقرينه الأثير.. الظلام.

فور أن فتحت عينيها باغتها الكثير من الألم الحارق أسفل بطنها، و الثقل برأسها والخدر الذي تمكن من كل أطرافها.

كانت رؤيتها مبهمة ولكنها اتضحت رويداً رويداً لتتبين الأمور.

كان يعلوها سقف به مصابيح بيضاء وهى مستلقية في رداء المشفى الورقي على فراش غير مريح بالمرة ولكن ذاك المنظر بالزاوية أدخل السكينة لفؤادها.

على الكرسي أسفل النافذة رأت (كريم) حاملاً طفلتهما التي خرجت من رحمها بسلام.

عاركت الخدل الذي أصاب شفتيها وبالكاد نطقت

- ابنتي.

انتبه (كريم) لزوجته التي استيقظت بعد ولادة قيصرية عسيرة تحت تأثير المخدر الكلي.

- ها هي هنا، يا حبيبتي.

قالها (كريم) وهو ينهض من على الكرسي متجهاً لسرير (مليكة) الشاعرة بألم لا يحتمل أثر جرح العملية التي شقت أسفل بطنها عرضياً.

عاونها على الاعتدال وناولها صغيرتهما.

- كما اتفقنا، أسميتها (صولا) لتكون هى مفتاح صول حياتنا.

كانت ضئيلة، أصغر من أية دمية حملتها (مليكة) بطفولتها لدرجة جعلتها تتوتر وتشعر أنها ستسقطها من بين أصابعها.

تشممت رائحتها التي تنبع بالحياة والأمل وتحسست بشرتها الوردية الملساء التي يستحسنها النظر وأنصتت لصوت استهلال أنفاسها الذي يطيب له القلب.

أيمكن للمرء أن يشعر بالسكينة والذعر في آن واحد؟

هذا ما اكتنف (مليكة) بتلك اللحظة وهى تضع رأس صغيرتها على صدرها وتبكي ناشجة

- لن أعود إلى البيت.

- حبيبتي، ماذا تعنين؟

- بيتنا مسكون.. أظنهما.. أظنهما عمتي وزوجها.. كانا يعزفان الدرامز والجيتار اللذين وجدناهما بالغرفة ثم نقلناهما إلى القبو.. لقد حبساني بالقبو وكدتُ أن أفقد طفلتنا هناك.

- عزيزتي أهدأي، لم يكن سوى كابوساً.

- كلا، لقد استيقظت على صوت موسيقاهما وحين نزلت وجدتهما بمنظر.. بمنظر بشع كاد أن يوقف دقات قلبي وأنت لم تكن بجواري.

- لقد تركت بالفراش ونزلتُ أدخن بالحديقة وحين انتهيتُ وجدتكِ بالسرير نائمة وكأنك لم تشعري بمياهك تندفع. كنتِ غائبة عن الوعي تماماً.

- كلا.. لقد كنتُ بالقبو و..

- أقسم لكِ كنتِ بالفراش تماماً كما تركتك.

راجعت (مليكة) تفاصيل تلك الليلة، الساعة، الموسيقى، نباح الكلاب، ظلمة القبو، الباب الموصد، ومنظر الطيفين.. لقد بدا كل شئ حقيقياً بشكل يستحيل أن يكون خيالاً أو كابوساً.

- ولكني.. أنا متيقنة من..

- مِمَّ؟ من أن قبونا مسكون بروح عازفيّ روك أند رول ماتا بالثمانينات؟ ضحك ساخراً وهو يتحسس أصابع وليدته الصغيرة: أظن أن هرمونات الحمل عبثت بأفكارك بعض الشئ.

***

أعانتها أمها على ارتداء ثيابها بعد أن لملمت أشياءها لتترك غرفتها بالمشفى وتستعد للعودة لمنزلها البرتقالي.

نزلت (مليكة) مع أبيها و(كريم) ثم انتظرت مع أمها بصالة استقبال المشفى حتى يُتِمّا أجراءات الدفع بقسم الحسابات.

حاولت أن تنسى ما رأته بليلة وضعِها واجتهدت لتقنع نفسها بأن ما سبق كان كابوساً ثقيلاً مرهقاً تماماً كما فسر لها (كريم) الأمر.

ظلت تتأمل وجه صغيرتها ذات العيون الواسعة وهى تتثاءب استعداداً للنوم وبمجرد النظر إليها هدأت وبدأ الرعب الذي علق بحواسها يتلاشى تدريجياً.

- لا حول ولا قوة إلا بالله.

قالتها والدة (مليكة) وهى تتابع الأخبار من التلفاز المعلق على الحائط، فرفعت رأسها لترى ما تعلق عليه أمها.

كانت المذيعة الحسناء ذات الشعر المنسدل على الجانبين تتكلم وبأسفل المشهد شريط أحمر مكتوباً عليه

التعطش لدماء الأطفال يعيد سفاح المعادي للحياة

انتبهت (مليكة) لكلام المذيعة متصنعة التأثر قائلة لمشاهديها

- مصرع خمسة أطفال أمس بحى المعادى رمياً بالرصاص الحي على يد مجهول سفك دماءهم بينما كان الملائكة الخمس يلعبون الكرة بالشارع. مما يذكرنا بسفاح أطفال المعادي الذى ظهر بثمانينات القرن المنصرم وقتل سبعة عشر طفلاً بالرصاص الحي وبالمحيط نفسه. وهنا نطرح السؤال، لماذا تنجذب الجرائم إلى هذا الحى بالأخص؟ وما هوية القاتل؟ وما دافعه؟.. مازالت التحقيقات جارية لتكشف لنا عن حقيقة الموضوع بالكامل وإلى أن يُلقى القبض على القاتل، نرجو من الأهالي الانتباه لأطفالهم وعدم تركهم بالشوارع دون إشراف.

ارتبكت (مليكة) وانقبضت من بشاعة الخبر وعاد الرعب متسللاً إلى قلبها مجدداً.

***

خيّم الليل على وليدتهما (صولا) التي ستبيت للمرة الأولى بمنزلها بين أحضان أمها.

مازلت (مليكة) تشعر ببعض التوتر خاصة وأن مقتل الأطفال الخمس وقع على بُعد شارعين من منزلها.

ودت أن تصرف الخبر عن رأسها فما من أم قادرة على تصور أن يكون هذا مثوى صغارها، فشردت عن الفكرة بأن

تأملت ضوء البدر الفضي المتسلل من النافذة، وركزت على الرائحة العطرة النابعة من حوض الزهور أسفل شباكها التي لطالما نجحت في إرخاء حواسها.

تحسست رأس صغيرتها بينما داعبت النسمات الصيفية وجهها على استحياء لتحرك الستائر بخمول وليسود صمت لا يقاطعه سوى حترشة حشرات الصريم وصوت خطوات (كريم) وهو يصعد السلم.

دخل الغرفة وألقى بنفسه على السرير متنفساً الصعداء

- لقد رحلوا جميعاً. أخبرتهم أن المقهى والستوديو أجازة لأسبوع كي أقضيه مع حبة السُكر تلك.

قالها وهو يداعب وحيدته ويقبل وجنتيها ويتحسس مقدمة رأسها الناعمة.

- لا أظن أنه من الصواب أن تظل الموسيقى تنبع من منزلنا وهناك خمسة عائلات ينحبن على صغارهم.

أطرق (كريم) لكلمات زوجته وهو يقبل كف صغيرته

- أنتِ على حق.. لقد قرأتُ بالجريدة أن جريمة مماثلة وقعت بعام 1980 وبالشارع نفسه والطريقة نفسها.. أمرٌ غريب.

- هل ألقت الشرطة وقتها على الفاعل؟

- قيل أن ذاك السفاح المختل انتحر قبل أن يُقبض عليه.. على أية حال، لا أظن أنه من الجيد الحديث عن أمر بهذه البشاعة بالقرب من (صولا) الصغيرة. لا يجوز أن يصل شيئاً كهذا لأذنيها الملائكيتين.

أخذ يغنجها ويقبلها ثم نهض:

- الجوع يعتصرني، سأعد لنفسي الشطائر، أتودين البعض؟

- كلا، سأرضعها وأنام.

- حسناً، لن أتأخر.

نزل الدرج وتركها مع ابنتها.

***

وقف بالمطبخ الأمريكي المفتوح على الصالة ومن خلال النافذة المقابلة للحديقة الخلفية الخضيرة، تأمل البدر الذي توسط كبد السماء الغدراء بينما فرد المايونيز على شطيرة النقانق خاصته ثم انتفض حين سمع حركة عنيفة آتية من أعلى.

خطوات ثقيلة وصريخ مكتوم ورائحة مزعجة طبقت على صدره.

أتاه صوت أقدام تركض ثم صياح يتصاعد يليه باب يُصفع بعنف ثم لمح من شباك مطبخه مَن تركض حافية بثوب نوم أبيض ممزق وظهرها تملؤه بقع الدماء والعرق الذي ألصق شعرها على عنقها ووجهها.

كان على يقين من هويتها ولكن حالتها الرثة أرعبته فتمنى لو كان ما يراه ليس سوى خيالاً راوده من شدة الإرهاق وقلة النوم.

اقترب من النافذة ليتبين حقيقة مخاوفه وقد كان على حق، تلك التي تركض غارقة في دماءها وعرقها هى زوجته التي تحمل صغيرتهما.. (مليكة).

كانت (مليكة)، تركض مذعورة حاملة ابنتها الوليدة بين ذراعيها وكأنها تحاول أن تأسرها بين ضلوعها إلى أن توقفت فجأة وقفزت للخلف مرتاعة وقد رأت شيئاً جعلها تصرخ بهلع كاد أن يقطع أوتارها الصوتية ويهشم قفصها الصدري.

سحب (كريم) سكين المطبخ الحاد وركض للخارج حيث تقف زوجته المرتعدة وابنتهما الصارخة.

أتاها من الخلف فرأى ظهرها يمتلئ بالكدمات والخدوش كأن نسراً مزق ثوبها فجِلدَها بمخالبه.

فور أن لمس كتفها أجفلت وقفزت في مكانها رعباً وصرخت مستنجدة، متشبثة بابنتها أكثر.

التفتت إليه فرأى وجهها، كانت الدماء تتدفق من أنفها وملامحها قد بُهتت رعباً.

- هذا أنا.. اللعنة! ماذا حدث لكِ؟

- ستقتل ابنتي! ستقتلها!.

- من هى؟ ماذا أصابكِ؟.

- سنترك المنزل، سنتركه لهما.

لم تمهله، خرجت من الباب الخلفي وهى بهذه الحالة ولكنها لم تبالِ بشئ سوى الفرار من المنزل مهما كلفها الأمر ولم تلتفت خلفها مجدداً لأنها تعلم جيداً أن من نافذة غرفة نومها تقف (جيهان) لتراقبها بابتسامة منتصرة.

***

على الرغم من أنها ركضت بسرعة عداء محترف، إلا أن (كريم) استطاع أن يلحقها ويخلع سترته الرياضية ليستر بها جسدها المكشوف ويضعها بسيارته ويقود بها حتى منزل أبيها كى تهدأ بعد أن خنع لرفضها للذهاب للمشفى أولاً.

أصيب (نبيل) بالهلع حين رأى ابنته تقف على عتبة بيته

بثياب نومها الممزقة والدماء تملأ ظهرها وتلك الكدمة الغاشمة على أنفها.

- من فعل بكِ هذا؟

قالها مرتعباً ولكن (مليكة) باغتته بسؤال أخرسه

- أكنت تعلم أن شبح عمتي يسكن فيلاتها؟

***

نظف جراحها من الدماء ثم عقمها ليضمدها.

لم تكن بحاجة لأى غرز أو خياطة، ولكن الجرح الذي يصْعُب تضميده الآن هو الذعر النفسي الذي عقرها والذي لم تخف وطأته وهي تروي لوالديها ولـ(كريم) ما صار بعد أن تركها بالغرفة مع ابنتها ونزل الدرج ليعد الشطائر.

***

حملت (مليكة) رضيعتها بين ذراعيها وهمت أن تكشف عن نهدها لترضعها ولكن ذاك الهمس الأقرب لفحيح الحية السامة خشبها.

- هذا بيتي.. بيتي أنا وحدي.

اتسعت حدقتا (مليكة) وأشعلت ضوء مصباح سريرها على

الفور لتلمح شيئاً.

مر طيف سريع من الحائط المقابل لسريرها ثم اختفى بالسرعة نفسها التي ظهر بها فلم تبصر منه سوى اللون الأزرق الفاتح والبنفسجي.

قربت ابنتها لقلبها أكثر وتمنت ألا يكون صوت دقاته المتصارعة قد أفزعها.

تلك الرائحة السُكرية والأنفاس الساخنة التي تُنفث بمؤخرة عنقها والقشعريرة المسيطرة على جلدها جعلوها تتيقن من أن ما حدث بليلة ولادتها لم يكن كابوساً.

- (كريم).

كلا، كان صوتها ضعيفاً مهزوزاً يستحيل أن يكون قد وصل للمطبخ بالدور السُفلي ليسمعه.

ضمت ابنتها أكثر وقررت أن تظل بمكانها، لن تنزل للقبو مهما حدث.

سمعت أزيز الخشب وخطوات الأقدام تدنو من غرفتها.. هناك من يصعد السلم فيسير بالممر بين الغرفة فيتوقف عند بابها ثم يُدير المقبض على مهل.

أتى ذاك الهمس من خلف الباب

- انتظري، ألن يكون المرور من خلال الباب كالعفاريت أروع من فتحه برتابة كالبشر؟

بصدره العاري ورأسه الأصلع وجيتاره الصدئ، وقدميه الحافيتين، عبر (تيمور) الشاحب من الباب.

انكمشت (مليكة) بمكانها وشعرت بالشلل يصيب أطرافها.

نظر إليها (تيمور) مبتسماً ثم علق بكياسة

- أوه، المعذرة، ظننت الغرفة شاغرة.

مرت (جيهان) ذات التفاصيل الدميمة والمشوهة من الباب مثل زوجها ثم صاحت بغضب

- أتعتذر من تلك المتطفلة؟

ضربت عصي الدرامز ببعضها في إشارة منها لتهديد (مليكة)

- ألم تكن رسالتي واضحة؟ هذا المنزل لا يُرحب بالزوار.

زفر (تيمور) بضيق

- ما خطبك يا (جيهان)، لطالما كنا أهل كرم.

أشارت (جيهان) للصغيرة التي تحملها (مليكة)

- ألا ترى ما تحمله بين ذراعيها.. معها طفلة.

اقترب (تيمور) متأملاً تلك الرضيعة ذات الأعين الواسعة ثم نظر بعينيه الذابلتين لـ(مليكة) بابتسامة مريبة

- تشبهك كثيراً، مبارك لك.

زفرت (جيهان) وكادت أن تشتعل عينيها العسلتين بنيران الغضب وهى تصيح بـ(تيمور)

- أنسيت ما يفعله بك صوت بكاء الأطفال!.

- عزيزتي، هوني عليكِ. نحن بحلم، كل هذا غير حقيقي، كل ما أثر علىّ بحياتي، لن يؤثر علىّ هنا.. أترين؟.. لقد عدتُ لعزف الروك أند رول وأشعر بشعور رائع.

- حقاً؟ إذاً، أنت بخير الآن؟ بكاء الصغيرة لن يضايقك؟

رفع كتفيه وأبتسم بهدوء

- ليس بهذا البعد الزمني أو الحلم أو الكوكب أو أياً كان ما نحن به.

ظلت (مليكة) ترتعش بزاوية السرير طيلة حديثهما وهى تتشبث بصغيرتها حتى أتى نباح الكلبين من وراء الباب بغتة فانتفضت شاهقة وإذ برضيعتها تنفجر باكية.

دوّى بكاء (صولا) بالغرفة وإذ بـ(تيمور) يحدق بها وصوت

نشيجها يسيطر على مسامعه.

لم تفهم (مليكة) ما الذي اكتنف ذاك الشبح المبتسم ولكنه بدأ يرتعش ويهتز ويرتبك وترمش عيناه.

للمرة الأولى، رأت (جيهان) المتوحشة متوترة وقلقة وهى تتأمل زوجها

- عزيزي، أواثق من أن بكاء الأطفال لم يعد يثير مخاوفك؟

هز كتفيه وهو يحدق بالرضيعة الباكية فزعاً

- أنا لا.. أنا لستُ على ما يرام.

اقتربت (جيهان) الثائرة من (مليكة) وأمرتها بهمس مرعب

- أخرسيها.

لم تفهم (مليكة) ما يدور ولكنها هزت صغيرتها وحاولت أن تُسكتها على أية حال ولكن في جزء من الثانية حدث الآتي.

انقشعت ابتسامة (تيمور) وأتى صوته مرعوباً مهزوزاً وكأنه هو الذي أبصر شبحاً مخيفاً وغطى أذنيه بكفيه وهو يصيح وقد أصابته حالة من الهذيان

- طفل يبكي وأرواح تحصد.. طفل يبكي بقسوة.

صرخت (جيهان) بـ(مليكة)

- خذيها واخرجا من منزلي.

ودت (مليكة) أن تنهض وترحل ولكن ساقاها خاناتها وعجزت عن تحريكهما.

صاح (تيمور) وكرر مرتعباً

- لا أود أن أموت.. لا أود أن أموت.

بنظرة ونبرة يملأهما الغضب ولن تنساهما (مليكة) ما حيت، صاحت (جيهان)

- أمرتك أن تخرسيها.

وثبت (جيهان) عالياً وانقضت على (مليكة) وضربتها بعصي الدرامز الخشبية على أنفها فشعرت الأم المسكينة بالدماء الدافئة تتدفق من أنفها ولكنها لم ترتعب إلا حين أدركت أن (جيهان) تبغى انتشال ابنتها من بين ذراعيها.

اندفع الأدرينالين بأطرافها وعلى الفور استدارت لتجعل صولا تواجه الحائط وتتخذ من نفسها درعاً يحجز بين رضيعتها وتلك الروح المتوحشة التي لم تتوقف عن خربشتها وغرس أظافرها بجلدها وضرب رأسها ومؤخرة عنقها بعصي الدرامز الخشبية وهى تأمرها

- اغربي عن منزلي أنتِ وصغيرتك العاهرة.

ظلت (مليكة) تبكي وتصرخ مستنجدة

- يا (كريم)، يا (كريم).

اشتد بكاء (صولا) وكذلك نباح الكلاب وبالتبعية قوة (جيهان) وهى تضرب (مليكة) صارخة

- اكتمي أنفاس تلك العاهرة الباكية.

صاحت (مليكة) بكل ما لديها من قوة والسرير يهتز بعنف من أسفلها

- يا كريييييم.

قررت (جيهان) أن تتوقف، وضعت عصيها بجيب سترتها وجذبت البندقية عن ظهرها واستعدت لقتلها ولكن ولأول مرة، كانت (مليكة) أسرع منها.

فور أن رفعت (جيهان) يديها عنها، أحكمت (مليكة) قبضتها على صغيرتها وطارت خارج الغرفة بينما لم يتوقف (تيمور) عن الهذيان

- بكاء طفل يتبعه الموت.. بكاء طفل يتبعه الموت.

ركضت (مليكة) على السلالم ثم هربت من الصالة وجرت حتى الحديقة الخلفية لتترك المنزل برمته.

بتلك اللحظة لم تبالِ بشئ سوى سلامة صغيرتها الباكية على كتفها فركضت حافية على العشب وكادت تصل للباب الخلفي المفتوح وإذ بها ترى ما يصعقها ويوقفها عن الركض.

طفل بالسادسة من عمره وآخر بالرابعة، الاثنان مرتديان ملابس رياضية صيفية والاثنان منقلبان على وجهيهما على العشب وقد تهشمت جمجمتيهما واخترقتهما رصاصة غاشمة وسالت الدماء وفاضت حتى خلقت بركة حمراء سقت العشب الأخضر دماً.

صرخت (مليكة) وكادت روحها أن تخرج منها حين استشعرت يد توضع على كفتها من الخلف فقفزت بمكانها لتلتفت وتجده (كريم) زوجها.

***

لم تقو (مليكة) على التوقف عن البكاء وهى تروي تلك المشاهد المفزعة فسألت أبيها

- لِمَ قد يود شبح عمتي أن يقتلني أنا وابنتي، يا أبي؟

نظر لها الأب مشدوهاً وعجز عن التعليق بينما قالت الأم

- هدأي من روعكِ يا عزيزتي، واستعيذي بالله الحفيظ.

وضع (كريم) يده على كتفها وجلس بجوارها على الفراش

وهو يقول

- ما تروينه مستحيلاً يا (مليكة)، هذا...

قاطعته صارخة

- إياك وأن تقول كابوسّ أشارت لجروح ظهرها ووجهها وهى تصيح بوجهه: أيبدو لك هذا ككابوس أو تهيؤات؟.. تلك الفيلا اللعينة مسكونة بروح عمتي وزوجها وهما منزعجان من وجودنا بالمنزل وأرادا قتل.. انفجرت باكية وهى تنظر لصغيرتها النائمة: أرادا قتل ابنتي.

عانقتها أمها وهى تهمس بآية الكُرسي بأذنيها كى تهدأ.

زفر (كريم) مرتبكاً وهو يسأل حماه

- عمي، أنت لا تصدق تلك الترهات أليس كذلك؟

- لن تعودوا لهذا المنزل.

- ماذا تعني؟

- أعني أن ابنتي ليست بمعتوهة أو مجذوبة.. لقد اعترضتُ منذ البداية على انتقالكما لمنزل أختي.

مسحت (مليكة) دموعها وسألت أبيها بغضب

- أكنت تعلم بوجود تلك الأرواح المتوحشة بذاك المنزل

وتركتني أذهب إليه كالقربان اللعين؟

- كلا البتة.. لم أتصور يوماً أن يكون مسكوناً أو ما شابه كل ما بالأمر أنني.. هذا البيت مقيت التاريخ ودموي الماضي.. لقد وقعت به جريمة شنيعة منذ أربعة عقود لذا لم أستلطف أن تعيشا به ولكني لم أؤمن يوماً بوجود الأرواح والأطياف وكل ما تعج به تلك الأفلام الهوليوودية اللعينة.

أسرع (كريم) قائلاً

- ها قد قلتها بنفسك.. أفلام هوليوودية لعينة.. يستحيل أن يكون ما رأته حقيقي.

- إذاً من هاجمها بتلك الوحشية؟ أنا لن أغامر بحياة ابنتي وحفيدتي.. وضبا أشياءكما وأغلقا بوابة الجحيم تلك.

- ما الذي أصابكم يا رفاق؟ أتودون أن نغلق المشروع الذي يدر علينا الأموال ونترك منزلنا من أجل بضعة ترهات لا أساس لها من الصحة؟ لقد وضعنا كل مدخراتنا بذاك المشروع و..

- حياة ابنتي وحفيدتي أثمن من ثروات العالم كله.

- ولكني قد..

- (كريم)! لقد قُضِيَ الأمر. إن وددت البقاء بالفيلا فهنيئاً

لك، عُد بمفردك ولكن ابنتي وحفيدتي لن تخرجا من هذا الباب، أواضح كلامي؟

نظر لهم (كريم) بغضب وتمكن منه العند فخرج من المنزل ليترك زوجته وابنته عند حماه (نبيل) وهو عازم الأمر، سيقرأ عن الأشباح ويجد طريقة ليتخلص من عازفي الروك أند الرول.

أو هذا ما تمناه قبل أن يقتلاه.

# (٤)

# تامبورين

## يونيو، 2019

هربت الدموع من عيني (مليكة) وهى تقص على (زينب) و(رأفت) كيف فارق (كريم) الحياة بسبب عِنده وإصراره على مصارعة خصم لا يفهم مدى قوته.

- ليتني لم أدعه يعود لهذا المنزل بتلك البساطة.

بكت بحرقة بينما دخل أبيها إلى الصالون حاملاً صينية من الشاى وضعها أمام ضيفيه ثم ربت على كتف ابنته وجلس بجوارها مخاطباً (رأفت) و(زينب)

- المعذرة، مازالت (مليكة) تحت تأثير الصدمة.. ندعو الله أن تتمكن الشرطة من القبض على المجرم و..

قاطعته (مليكة) وهى تمسح دموعها قائلة

- لا داعٍ للكذب عليهما يا أبي.. لقد اتصل بهما (كريم) قبل وفاته كي يساعداه على طرد تلك الأرواح اللعينة من المنزل ولكنهما.. انفجرت باكية مجدداً: تأخرا عليه.

ارتبك الأب وهو يسأل ابنته المنهارة

- ماذا تعنين بطرد الأرواح؟

أجابه (رأفت)

- دون الخوض في الكثير من التفاصيل، نعلم أن المنزل مسكون بشبح أختك وزوجها، ولنتمكن من إعادة روحيهما إلى عالم البرزخ، يجب أن نفهم أولاً سبب تشبثهما بهذا العالم. في الغالب، تبقى الروح عالقة بعالم الأحياء بعد موتها إما لأنها روح آثمة تخاف ملاقاة الله وعذابه، وإما لأنها تود أن تثأر من قاتلها، ولكن مما قرأناه عن قضيتهما الأمر لا ينطبق على (جيهان)، فهى الضحية بهذه الجريمة وهى التى قتلها (تيمور) ثم انتحر.

- صحيح.

- ولكنها غير مدركة لذلك، لقد رفضت تصديق أن (تيمور) هو قاتلها لذا نود أن نعرف إن كان هناك جانباً آخراً للقصة لا نعرفه.

- إن كنتما تودان أن تعرفا قصة (جيهان) و(تيمور) بالتفصيل، فقد قصدتما الشخص الخطأ.. صحيح أن (جيهان) هى شقيقتي ولكنها كبرتني بسبعة عشر عاماً. حين توفت، كنت مازلت بالثامنة من عمري حتى أن أبي لم يكن يتكلم عنها لدرجة أني لم أدرك أن لي أختا إلا يوم جنازتها.

- وما الفعل الدميم الذي ارتكبته (جيهان) للدرجة التي جعلت أبيك يطردها من حياته؟.

- لا أظنه طردها من حياته بقدر ما طردته هى من حياتها.. ولكن على أية حال، لستُ أفضل من يقص عليكما حكايتها ولكني أعرف شخصاً لن يمانع الحديث عنها.. ليس فقط لأنه أكثر الناس ثرثرة على وجه الأرض، بل لأنه عاش معها تفاصيل حياتها لحظة بلحظة.

***

لـ(ناهد مخيون) – البالغة من العمر خمسة وستين عاماً – بعض الطقوس الصباحية.

تستيقظ بالسادسة ليكون أول ما تفعله هو تلميع آلة التامبورين المصممة على شكل نجمة حمراء، فتحملها للتنظيف ثم تعيد تعليقها على الحائط المقابل لفراشها ثانية.

بعدها، تتجه للمطبخ لتعد لنفسها البيض المخفوق والجبن الخالي من الملح وهى تدندن على موسيقى الروك أند رول الصادرة من مشغل الكاسيت الباناسونيك موديل ١٩٧٢ الذي ابتاعه لها زوجها الراحل من الولايات المتحدة أثناء خطبتهما.

لا تسمع لفرقة غير ليد زيبلين، ليس تمجيداً لموسيقاهم

العظيمة فحسب، بل ليكتنفها حنين حقبة انتهت و جموح خفت وشباب مضى وضي انقشع.

تختم فطورها بارتشاف كوب من الشاى بالنعناع في شرفتها البهيجة الألوان بعد أن تسقى الزرع الذي يزينها وتطعم العصافير التي تزورها كل صباح.

ولكن اليوم جدَ جديد، لقد طرق بابها.

نهضت العجوز الرشيقة وفتحت الباب لزائريها المنتظرين: (رأفت) و(زينب).

- مرحباً قالتها بابتسامة واسعة: لقد أخبرني (نبيل) بكل شئ.. تفضلا.

***

كانت تفاصيل منزلها حميمية ومألوفة وكأنها الجدة التي تتهافت على زيارتها للشعور بالدفء.

كل تفصيلة كانت تخاطب حنين الطفولة، مفارش الكروشيه الصغيرة التي تتوسط المنضدة، لوحات الكانفا لبائع العرقسوس وأخرى لراقصة وطبال وثالثة لقطة طويلة الشوارب زغبة الفرو.

بالزاوية – بجوار الهاتف الأحمر القديم ذي القرص – كانت

مكتبة خشبية صغيرة بها كاميرات فلاش قديمة لا شك أنها بليت، حولها صور بالأبيض والأسود لـ(ناهد) الشابة وزوجها وابنهما طفلاً، وأخرى لها هى وفتاة أخرى حين أمعنت (زينب) النظر إليها، تيقنت من أنها (جيهان) قبل أن تقتل غدراً وتصير شبحاً ثائراً.

تناثرت الذكريات بين الصور وأعداد المجلات القديمة والأسطوانات الضخمة داخل أظرفها التي طلاها الزمن بالأصفر، وشرائط الكاسيت المصفوفة بعناية وترتيب أبجدي دقيق وبتلات الورود المجففة التي استحالت سوداء قاتمة وبين مفارش لطيفة المنظر وتماثيل من البورسلين في حجم الكف تصطف بين الأرفف وعلى أطراف الطاولات وإطار النافذة حيث الزجاجات الفارغة من المياه الغازية التي أعادت (ناهد) تدويرها لتصبح مزهريات للورود الملونة التي تسقيها صباحاً.

خرجت (ناهد) من المطبخ بصينيتها المنقوشة ووضعت أمامهما أبريق الشاى المزين بروسومات زهور رقيقة، وكوبين بهما عودين من النعناع وكذلك طبق من الكعك وآخر من البسكويت وثالث من الفطائر الإنجليزية المحشوة بالكاسترد وحبات المانجو، مطبوع عليهم رسمة روميو وجولييت.

لا تتذكر متى كانت آخر مرة استقبلت فيها ضيوفاً، فمنذ

وفاة زوجها من خمسة أعوام، لم يؤانسها سوى صوت الراديو وزقزقة عصافير الصباح.

- لقد أخبرني (نبيل)، أنكما تودان التحدث معي عما وقع بالمعادي سنة ١٩٨٠.

- صحيح، ولكن هل أوضح لك السبب؟

- نعم. لقد فهمتُ كل شئ. صحيحٌ أنني لم أقتنع، ولكني فهمتُ.

ارتشفت شايها المنعش ثم أكملت مثرثرة

- على أية حال، كان ذلك بظهيرة يوم الجمعة الموافق للخامس من أغسطس، درجة الحرارة كانت ثمانية وثلاثون. أراد (مجدي).. (مجدي) هو اسم ابني الوحيد، لقد أصبتُ ببعض الأورام اللمفاوية الخبيثة بعد إنجابه بقرابة سبعة أعوام واضطررت أن استأصل الرحم وعليه، أنا لم أنجب غيره ضحكت متوترة: حسناً، حالتي الطبية ليست جزءاً مؤثراً بتلك القصة ولكن على أية حال، لن أطيل الثرثرة.. سأدخل بصلب الموضوع الآن.. أراد (مجدي) أن يذهب لحمام السباحة ولكن لم يكن لدي ما يكفي من الوقت لذلك، أمسكتُ بيده وأخذته لمنزل (جيهان) و(تيمور) وقدته بنفسي لمقتله.

نظر لها الاثنان بشفقة فابتسمت لهما وهى تقول بدفء

- لا يا عزيزيّ، لا تشفقا علي، ما الموت سوى نهايتنا المحتومة. ما يخطئ به البشر هو الظن أن الموت مرادفٌ للفناء.. كلا البتة، صغيري مات وهو بالسادسة ولكنه لم يفنَ، مازال معى، مازال هنا قالتها وهى تشير لقلبها: وهكذا أبيه وهكذا (جيهان) وكل من أحببتهم.

ابتسم لها (رأفت) وقد راقته نظريتها البوهيمية ثم علق

- لقد فهمتُ من السيد (نبيل) أن (جيهان) كانت ابنة خالك وصديقتك المقربة.

- بل كانت أنا.. تمنيتُ لها ما تمنيته لنفسي ولم أرض لها بما لا أرضاه لي.. وهكذا كان (تيمور) ولكن ادعوني بالكاذبة المنافقة إن أخبرتكما أني مازلتُ أشعر بالشعور نفسه تجاهه بعد أن قتل ابني، صحيحٌ إني كثيراً ما أحلم به يستسمحني ويطلب مني الغفران. عله عقلي الباطن يطلب مني ألا أثقل روحي بالكراهية والضغائن فحسب ولكني لا أقوى على مسامحته بعدما سلبني أعز شخصين بحياتي، صديقة عمري وابني أطرقت لورق الحائط الفاقع الذي تقشر جزئياً وأردفت بنبرة يملأها الشجن: لو لم أكن قد رأيتُ كيف قتلهما بأم عينيّ لربما وجدتُ بداخلي ما يكفي من القوة لمسامحته ولكني رأيتهم.. مجزرة بالحديقة الخلفية وأخرى بالقبو

وهؤلاء الأطفال بالشوارع المحيطة ترقرت عينيها بالدموع: يا إلهي، لا أتخيل أن يعيد الزمن نفسه، بعد تلك الحادثة التي تناقلتها الصحف.

- أتتذكرين تفاصيل ذاك اليوم؟

ابتسمت بمرارة

- كيف لي أن أنسى تفاصيل اليوم الذي حملتُ فيه جثة ابني؟

***

**5/أغسطس، 1980**

عدلت (ناهد) زينتها على عجلة بينما ظل ابنها يقفز على الفراش معترضاً

- ولكنك وعدتيني بالذهاب لحمام السباحة، يا أمي.

- أعلم يا صغيري ولكن على ماما أن تذهب فوراً للمشفى حتى تساعد تلك السيدة المسكينة على وضع مولودها.

- ماما.. من أين يأتي الأطفال؟

على الرغم من كونها واحدة من أفضل – إن لم تكن أفضل – طبيبات النساء والتوليد بمشفى العزيز للنساء والولادة إلا

أن سؤالاً كهذا قد أربكها.

استدارت لصغيرها وجثت على ركبتها لتربط له حذاءه وهى تشرح له بتوتر

- حسناً، يأتي رجل ويحب امرأة، يتزوجها ثم يملأ لها كوب من الماء ويسقيها إياه، تظل تشرب من الكوب حتى تمتلئ بطنها وتمتلئ وتمتلئ لحد الانتفاخ ثم تعطس فيخرج منها الجنين.

- ومن أين يخرج؟

انتهت من ربط حذاءه ولكنها لم تتوقع الخوض في المزيد من التفاصيل.

حكت عنقها مفكرة للحظات حتى أجابته

- يخرج من فتحتى أنفها حين تعطس.

- أهكذا أتيتُ للدنيا؟

- نعم، هكذا أتيت أنت وهكذا أتى (علي) الذي أنت على وشك تمضية وقت رائع معه بحديقة منزله الجميلة.. ألا تحب حديقة منزل الخالة (جيهان)؟

- بلى، ولكن هل يمكن أن أخذ معي فيلم جيمس بوند لأشاهده هناك؟

- بالتأكيد يا عزيزي قبلت وجنتيه: والآن فلنسرع.

لم يكن الزحام خانقاً بتلك الظهيرة الحارقة وكلما ابتعدت (ناهد) وابنها عن الدقي و اقتربا من المعادي، قلّ الزحام وساد الهدوء بذاك الحي الخضير.

صفت سيارتها الفيات ١٢٤، عند مدخل الفيلا البرتقالية ونزلت مع ابنها الذي جلب معه صندوق ألعابه وأفلام الأكشن المفضلة لديه هو وصديقه (علي).

طرقت الباب على عجلة وتأخرت الأجابة حتى ظنت أن المنزل خاليّ وكادت أن ترحل حتى أتاها صوته الخمل المشبع بالنعاس

- آتٍ.

فتح الباب وهو لا يرتدي سوى سروال منامته البرتقالي المزركش بالرسومات الهندية ورداءه الحريري الذي يشبه الكيمونو الياباني.

فور أن أدرك (تيمور) أن الواقفة عند الباب هى (ناهد)، ربط طرفي رداءه حتى يستر صدره العاري.

- مرحباً يا (تيمور)، أعتذر منك إذا أيقظتك، ولكني اتصلت بكما كثيراً بلا رد.

- الهاتف معطل منذ الأمس.. تفضلي، (جيهان) ذهبت لشراء بعض البقالة.

- أنا على عجلة من أمري، هل لي أن أترك (مجدي) معكم حتى أنهي عملية الولادة المتعجلة تلك؟

- بالتأكيد ابتسم (تيمور) لـ(مجدي) الصغير وداعب شعره الكثيف: هيا يا بطل، صديقك يلعب بالحديقة الخلفية.

- لقد أحضرتُ معي الكثير من اللعب.

قالها (مجدي) الصغير بحماس ثم ركض بالداخل حتى ينضم لصديقه بينما ابتسمت (ناهد) لـ(تيمور) بامتنان

- أشكرك، لن أتأخر كثيراً.

- لا داعِ لذلك يا (ناهد)، نحن عائلة.

شكرته مجدداً ثم خرجت وقادت على عجلة متجهة للمشفى.

كانت عملية ولادة فريدة من نوعها ولن تنساها، لقد وضعت مريضتها ثلاثة توائم وعلى الرغم من روعة تلك المعجزة إلا أنها كانت مُرهِقة وشاقة عليها.

خرجت من غرفة العمليات تجفف عرقها ملتقطة أنفاسها.

شربت بعض الماء فالقهوة ثم أخذت بعض السكاكر لتسترد طاقتها ثم خرجت من المشفى عائدة لفيلا (جيهان) و(تيمور).

رأت بشوارع متفرقة بمحيط الفيلا بعض سيارات الإسعاف والشرطة ومجموعة من السكان والجيران والأهالي يبكون منهارين فتوترت ولكنها لم تفكر بالوقوف للسؤال عما يدور بل حدسها دفعها للإسراع لمنزل (جيهان).

وصلت فصفت سياراتها الحمراء ثم دخلت من باب الحديقة الأمامي المفتوح كالعادة.

طرقت الباب دون أن تلاحظ أنه كان موارباً وبدلاً من أن تجد جواباً من أهل الدار، فُتح الباب على مهلٍ مِن وَقع طرقها.

دخلت متعجبة ونادت صاحبيها

- (جيهان)!.. (تيمور)!.

قابلها الصمت ورحب بها شعور غريب بالريبة وكأن مجسات الإحساس بالخطر التي تصاحب غريزة الأمومة عندها قد التقطت إشارة ما.

- (مجدي)!.. (علي)!.

لم تلقَ جواباً فبحثت بالصالة ثم غرفة (علي) ولكن لم تجدهما.

خمنت أنهم خرجوا جميعاً للنادي كي يرفهوا عن الأولاد بالمسبح ولكن غريزتها قادتها للقبو الذي يمضي به (تيمور) نهاره للعمل على سمومه التي يخترعها ويعدلها والذي كثيراً ما يصيب فضول الأطفال فيختبئان به لمراوغة أهلهما.

اتبعت حدسها ونزلت السلالم المؤدية للقبو.

ليتها لم تفعل!

كانت الإضاءة خافتة والمكان ممتلئ برائحة سُكرية خانقة يخالطها رائحة معدنية ثقيلة تحفظها (ناهد) عن ظهر قلب.

رائحة الدماء!

لم يحتج الأمر سوى بضعة خطوات كى ترى (ناهد) ما حدث بوضوح: ملقى على ظهره كان (تيمور)، بجواره قارورة بلاستيكية فارغة ومن عينيه اللتين جحظتا و اصفرتا وبرزت عروقهما الحمراء وكفاه المتخشبتان وشرايينه التي نتأت من أسفل جلده الباهت، كان من الجلي لطبيبة كـ(ناهد) أن تفهم أن (تيمور) قد تسمم مما بالقارورة الفارغة الملقاة بجواره.

لقد ارتعبت ولكن ليس بالقدر نفسه حين لاحظت يده المرتخية على بندقية صيد البط الخاصة بـ(جيهان).. (جيهان) التي كانت ملقاة على بطنها بجواره غارقة بدماءها إثر طلقتين، واحدة اخترقت صدرها وأخرى اخترقت مؤخرة رأسها ومازالت عيناها مفتوحتين.

لا تعلم (ناهد) كيف لم يُشق السقف وتتحطم الزجاجات المعملية التي تملأ القبو إثر صرختها المذعورة.

لم يكن لها رد فعل سوى الصراخ والركض خارج القبو وهى تنادي باسم وحيدها

- (مجدي)!.. (مجدي)!.

لم تفكر بشخص سوى ابنها الذي نست أن تقبله اليوم قبل أن تسرع لعملها بالمشفى.

فتشت البيت كله، غرف النوم والمعيشة والحمامات والمطبخ والصالة والحديقة الأمامية ثم تذكرت.. الحديقة الخلفية.

رأت ما لم يكن ليخطر ببالها أو حتى يجرؤ على أن يراود أعتى كوابيسها المرعبة.

بالحديقة الخلفية وبالقرب من أرجوحة الهاموك البرتقالية

المربوطة بين شجرتين متينتين، رأت وحيدها.

كان مقلوباً على وجهه بجوار (علي) صديقه والدماء تغطيه حتى منتصف ظهره لدرجة غيرت لون القميص الذي ألبسته إياه هذا الصباح.

هناك من هاجمه من الخلف بأداة ثقيلة هشم بها جمجمته الصغيرة ولم يكتف بهذا، بل أطلق أيضاً على رأسه رصاصة غادرة.

كان من المفترض أن تصرخ وتخر باكية بجوار ابنها القتيل كما بكت صديقيها، ولكنها لم تفعل ذلك، تفاجئت بأن قوتها تضاعفت واندفعت لتحمل ابنها بذراع و(علي) ابن (جيهان) بالأخرى وركضت بهما والدماء المتجلطة تخضب ثيابها الزاهية.

ركضت حتى سيارتها ووضعت الصغيرين بالأريكة الخلفية وطارت على الأسفلت.

كانت تعلم أن الآوان قد فات ولكنها دعت لمعجزة كمعجزة إبراهيم الذي كانت النيران برداً وسلاماً عليه.

حسبت أنه إذا دعت وتضرعت وناجت ربها بما يكفي وهى تسرع للمشفى في دقائق معدودات، سيُبعث وحيدها من الموت.

ظلت تبكي وتنشج طيلة طريقها إلى المشفى حتى كادت الدموع أن تعميها وتمنع عنها الرؤية كلياً وهى تنادي مطالبة بمعجزة كونية تعيد المتوفي بعد مقتله، ولكن كأى أم بموقف مماثل، نست (ناهد) أن زمن المعجزات قد ولى.

***

**يونيو، 2019**

ليست المرة الأولى التي تروي فيها لحظة اكتشاف مقتل ابنها وانتشال جثته من على العشب المرتوي بدماءه، ولكن هذا لا يعني أنها اعتادت قسوتها أو نست وطأة مرارتها، وعليه، لم تتوقف دموعها عن الانزلاق على وجنتيها المتجعدتين فمسحتهم بأناملها المكرمشة وحاولت أن تستعيد ابتسامتها المسالمة وهى تردف

- تظن نفسك قد رأيتَ أهوال الحياة وإنك قوي لا منتصرٌ عليك ثم يخلق الله منك روحاً يجعل حياتك وكيانك وكونك يتعلقون بسلامتها وسعادتها، وبعد أن تحملها بين يديك وتراها تضحك وتنبض بالحياة بين كفيك تنقلبُ حاملاً إياها بين ذراعيك ميتة، باردة، بلا نبض.

سحبت منديلاً من على الطاولة مسحت به عينيها وأنفها الذي سال ثم أكملت:

- عرفنا لاحقاً أن (تيمور) هو القاتل. حطم جمجمتي (مجدي) و(علي) بكعب بندقية الصيد الخاصة بـ(جيهان) حين كانت بالخارج لشراء البقالة ثم أصابته حمى قتل دموية وكأن حصد الأرواح قد راقه. أوقف سيارة أجرة بالجوار، قتل سائقها ثم طاف بها ليقتل الأطفال اللاهين بالشوارع المحيطة بالفيلا وحين عاد كانت (جيهان) وصلت للفيلا واكتشفت الجريمة فقتلها ثم سمم نفسه منتحراً.

- وما الدافع؟

- كان (تيمور) معطوباً. يُكثر من تعاطي الطوابع المهلوسة بل ويطورها ويعدل من تركيبتها لتصبح أشد تأثيراً. لقد ارتكب كل هذا تحت تأثير المخدرات على الرغم من أنه كان أقلع عنها قبل الحادث بسنوات، ولكن يبدو أن ضغوطات الحياة أعادته إلى أحضان المواد المهلوسة.

صمتت (ناهد) وأطرقت لمشغل الكاسيت الذي تنبع منه موسيقى الروك أند رول ثم أردفت بأسى

- لم أتخيل يوماً أن يكن هذا مثواهما. لم أتخيل أن تكون موتة (جيهان) بهذا السن وبتلك الطريقة البشعة ابتسمت وهى تتذكر صديقتها الراحلة: لو قابلتماها لفهمتما قصدي، كانت ثائرة آبية كشعلة من النيران تتقد قوة وحماسة. لم

تكن طيعة مسالمة تتبع القوانين والقواعد المفروضة على النسوة، بل كانت مرادفا لكل الأفعال التي قد تنهاك أمكِ عن ارتكابها كى لا تخربي صورة الأنثى الأليفة التي أرغمنا عليها، لهذا لم تكن محبوبة كثيراً من نساء عائلتنا فقد كان سلوكها يثير حفيظتهن وغيرتهن بالوقت ذاته، فجميعهن - وأولهن أنا - كن يحسدنها على حريتها، فلطالما فعلت ما تريد كما ومتى وأينما تريده. كانت تدخن علنية وتتكلم بصوت جهوري، وتسب وتتشاجر بالشارع كالرجال، وتعلك اللبان بصوت عالٍ وتضع طلاء الأظافر الأحمر وحمرة الشفاه المحرمين على بنات الذوات الراقيات، وتضع ساقا فوق الأخرى أمام من تريد وترتدي الجينز والسترات الجلدية السوداء لا الفساتين والتنانير الملونة، وتضحك ضحكة مجلجلة، إن كانت من قلبها فهى حتماً ستنتهى بأعين دامعة وصوت يشبه الشخير.. كانت تقرع الدرامز وتجيد الصيد وركوب الدرجات النارية وتسافر وترتحل وتسهر بالملاهي بمفردها بلا أذن. بسبب روحها الجامحة تلك، قد نختلف في الحكم على فضيلتها من رذيلتها ولكن لا شك أننا سنتفق على أنها كانت صادقة غير متصنعة أو متظاهرة بعكس ما يؤمن به قلبها، ولأصالة شخصيتها، كانت (جيهان) تبرز بأى تجمع نسائي وكأنها هى الماسة الحقيقية الوحيدة وسط مئات القطع الزجاجية ذات البريق الزائف. وعلى أية حال، فليذهب

حكمنا عليها ورأينا بها إلى الجحيم وليحترق في نار السعير، لأن كل ما سبق كان سبب عشق (تيمور) لها وولعه بها، وهذا كل ما كان يهمها..

# (٥)
# درامز

***ديسمبر، 1973***

لو استعان الجيش بخدع (جيهان) الاستراتيجية، لانتهت حرب أكتوبر أبكر من ذلك.

فالليلة، وضعت (جيهان) تلميذة الثانوية التكتيك السليم بعد أن استطاعت أخيراً أن تقنع (ناهد) – ابنة خالها الجامعية – أن تضرب بأوامر أهلها بعرض الحائط.

أخذت (جيهان) تشرح لـ(ناهد) الساذجة أنها إذا اتبعت إرشاداتها والتزمت بتعليماتها، ستتمكنا بسهولة من أن تتسللا من البيت ليلاً لملاقاة خطيبها بديسكو الكينج دون أن يكشفهما أهلها.

تظاهرتا بالنوم في تمام السابعة مساءاً ثم أغلقتا الباب من الداخل وحين تأكدتا من أن والد (ناهد) خرج لمناوبته الليلية بالمشفى، وأن والدتها وضعت ثوب نومها ودخلت فراشها الدافئ والهدوء التام قد عم البيت، تسللتا لغرفة شقيق (ناهد) – الذي نام مشخراً بعد ساعات طويلة من دفس أنفه بكتب الطب السمينة – وسرقتا مفتاح سيارته، ثم غيرتا ملابسهما وقفزتا من النافذة التي لا تعلو عن الرصيف بأكثر

من مترين.

أخذت (جيهان) المفتاح واتجهت للسيارة الفولكس التي تشبه الخنفساء الخضراء ثم أدارت المحرك بينما انزلقت (ناهد) بالمقعد المجاور لها بحماس طفولي.

- يا ويلي.. لقد هربث حقاً من المنزل.

طرقعت (جيهان) علكتها وأخرجت من سترتها شريط كاسيت دسته براديو السيارة ليبدأ صخب موسيقى الروك أند رول.

- عليكِ أن تعتادي الأمر يا عزيزتي، فأنا أعدك أن هذه لن تكن المرة الأخيرة التي ستكسرين فيها قواعد عائلتك الرتيبة.

***

صفتا السيارة عند ديسكو الكينج بالدقي.

لحظة دخولهما من الباب كانت مثالية لملاحظة تباين مظهرهما، فبمعطف (ناهد) الأبيض وبثوبها الوردي وبشعرها البُني المنسدل على كتفيها، وبقرطها اللؤلؤي الذي يطابق عُقدها، بدت في غاية الرقة بعكس جموح مظهر صديقتها.

فـ(جيهان) شعرها أشقر مربوط بعنف كذيل الحصان

وإكسسواراتها الغجرية تشخلل ذراعيها وتتناثر على صدرها فوق قميصها القطني المرسوم عليه شعار فرقتها المفضلة وقد قامت بربط طرف قميصها الفضفاض كعقدة عند وِسطها أسفل سترتها الجلدية السوداء كاشفة عن عودها المنحوت الذي يبرزه جينزها العالي الخصر.

وقفت (ناهد) مندهشة، فهي لا تعرف عن الديسكو سوى أنه المكان الذي يرقص فيه (ترافولتا) بأفلامه، ولم تتخيل أنه سيكون بهذا الزحام و الحرارة لدرجة أنها خلعت معطفها و اختنقت من رائحة العرق الممزوجة بالنيكوتين و الكحول وقد خيّم على رؤيتها طبقة ضبابية شوهت نظرها.

انغمست (ناهد) في اكتشاف المكان بنظرها بينما أخرجت (جيهان) علبة سجائرها وأخذت تتابع الشباب مرتدين الملابس اللامعة والأحذية البراقة الغريبة وهم يرقصون أسفل كرة الديسكو التي تضرب الحاضرين بأضواءها ذات الألوان الفاقعة المتغيرة مع إيقاع موسيقى الديسكو التي تجدها (جيهان) سطحية وتفتقد للإثارة تماماً كهؤلاء الحمقى الذين يتبارون بالرقص وكأن أكثرهم إتقاناً لحركات الديسكو المبتذلة هو أكثرهم فحولة.

نفثت (جيهان) دخانها ثم صاحت بـ(ناهد) كي تسمعها

- كفى تحديقاً بالناس كالقروية الساذجة.

- لم أدخل أي ديسكوهات من قبل.

- واضحٌ.. فلتبحثي عن خطيبك عوضاً عن الوقوف كذات الرداء الأحمر التائهة بالغابة.

هزت (ناهد) رأسها موافقة ثم علقت

- أظنه بالكواليس، فمن المفترض أن تعزف فرقتنا بعد قليل.

حركت (جيهان) يدها غير مبالية وظلت تشاهد الراقصين على أغنيات فرقة بي جيز حتى كادت أن تشنق نفسها من رتابة الإيقاع إلى أن رأت على المسرح ما جذب انتباهها وجعلها تغرق بأحلام اليقظة.

كان درامز أحمراً، أسرت لمعته قلبها خاصة حين قرأت عليه حروف ماركته لودفيج وظلت تشاهده حتى قطع حبل أفكارها منظر (ناهد) وهى تركض صوبها باكية.

- يجب أن نرحل الآن، يا (جيهان).

- ماذا بكِ؟

- لا وقت للحديث.

- هل تشاجرتِ مع خطيبك الأبله، يا فتاة؟

- كلا حاولت أن تهدأ بكاءها: إنه ذاك السافل الواقف عند ساحة الرقص.

نظرت (جيهان) حيث أشارت لها (ناهد) لترى شاباً يرتدي قميصاً بنفسجياً لامعاً إن نظرت إليه مطولاً ستصاب بعمى مؤقت من قبح لمعته.

كان يترنح وزجاجة الويسكي بيده ويدور كأنه يراقص شيطاناً خفياً.

- ماذا فعل بكِ؟

بكت أكثر ثم اقتربت وهمست بأذنها

- لقد صفع مؤخرتي مسحت دموعها وأردفت: لقد كان أبي محقاً، الديسكو ليس مكاناً آماناً لفتاة مثلي.. فلنرحل.

ألقت (جيهان) سيجارتها ودعستها بحذاءها ثم قالت بثقة

- ليس بعد.

اتجهت صوب الدنيء الذي تحرش بابنة خالها، و(ناهد) تتبعها مرتبكة ولكن (جيهان) لم تمهلها، كان الأمر بغاية السرعة.

سحبت قارورة جعة فارغة واقفة على أحدى الطاولات في طريقها إلى المتحرش، ثم طرقت على كتفه من الخلف

ليواجهها، فالتفت إليها وفي لمح البصر، كانت قد هوت على منتصف رأسه بالقارورة لتتطاير شظايا زجاجها ويشهق الناس متفاجئين بينما يسقط المتحرش أرضاً وجبينه ينزف.

صرخت (ناهد) ثم وضعت يدها على فمها مصدومة من رد فعل قريبتها العنيف.

نفضت (جيهان) يدها من الزجاج بحذر ثم أخبرت (ناهد)

- الآن، يمكننا الرحيل.

***

ركضتا خارج الملهى و(ناهد) تسألها متوترة

- أواثقة من أنه لن يمُت؟

- لا أعلم، أنتِ الطالبة بكلية الطب.

- يا إلهي، سنقع بمأزق كبير إن أبلغ الشرطة. سنسجن حتماً.

- كفاكِ جبناً، حالته ليست بهذه الخطورة.

خرجتا من الديسكو لتتفاجأ (ناهد) بخطيبها (ياسر) واقفاً بالزاوية عند الباب الخلفي ومعه شاب غريب لم تره (جيهان) من قبل.

كان يرتدي سروال تشارل ستون أبيض و قميصاً من

الشيفون مفتوح ليُظهر جسده الرياضي وذاك الوشم على أيسر صدره المطابق للشعار المطبوع على قميص (جيهان).

كان غربي المظهر، إخناتوني الملامح، رائق البشرة، مطاول الوجه، ذا غمازاتين، ذقنه مختومة بطابع حسن بارز، وحاجباه العريضان يبرزان عينيه الداكنتين الكحيلتين، وشعره الأسود الطويل المتموج ينزل على كتفه المرتخي من شدة الإحباط وهو يتكلم مع (ياسر) متأففاً

- يا صاح، أنت مدير الفرقة، لا يجوز أن تقبل بتلك الأعذار الواهية.. نحن نحاول العزف بهذا المكان منذ أشهر ولقد منحنا القدر فرصة، فماذا نحن فاعلون؟

- يا (تيمي)، الأمر أننا..

- الأمر أننا مجموعة من الجاحدين الكسالى وصدقني لن ننجح بأى شئ إذا ظللنا نفكر بتلك العقلية المرتخية.. من المفترض أن نصعد ذاك المسرح خلال خمسة عشر دقيقة.. خمسة عشر دقيقة يا صاح وعازف الدرامز الذي اخترتَه أنت وأصررت عليه، لم يأتي بعد.

- يمكننا أن..

- يمكننا أن نذهب للجحيم في صمت.

- لم أكن لأقل ذلك، كنت سأقترح أن..

- أعرف ما كنت ستقترحه والأجابة هى كلا يا عزيزي، لا يمكننا الصعود إلى المسرح بلا عازف درامز.. أتتخيل ليد زيبلين بلا (جون بونهام)؟ سنجعل من أنفسنا أضحوكة.

- يا (تيمور) هؤلاء السُكارى لا يعلمون حتى من هو (جون بونهام) ولا ماهية فرقة ليد زيبلين.

- ولكن أنا أعلم ماهيتهم وأحترم موسيقاي حتى وإن كانت تُعزف لمجموعة من الحمقى.

- حسناً، فلتهدأ يا (تيمي).. يمكنني أن أماطل حتي يصل (حسين) و..

قاطعه بنبرة محبطة وهو يحرك يديه في الهواء بطريقة منهزمة

- يا صاح، ذاك العاهر لن يأتي، الكوكايين والخمور أتلفا عقله الصغير زفر (تيمور) بضيق: فلتعتذر منهم وتؤجل الحفل، لقد اعتمدنا على الشخص الخطأ.

- كلا، سأفكر في حل آخر و..

- يا شباب!.

التفتا ليجدا (جيهان) و(ناهد) تقتربان منهما فتوقف

(تيمور) عن الكلام واتكأ على الحائط مربعاً ذراعيه بينما أقبل (ياسر) على خطيبته

- (ناهد)؟ ظننتك لن تأتي.

- لن تصدق ما حدث. لقد تسللنا من المنزل حتى لا نفوت الحفل.

- عظيم فأنا حقاً لا أجيد العزف على التامبورين.

زفر (تيمور) وعلق بابتسامة متهكمة

- أكره أن أكون السخيف الذي يحبط أجوائكما الرومانسية، ولكن الحفل قد ألغى.

- كلا قالتها (جيهان) بثقة موجهة حديثها لـ(تيمور): سأنقذ مؤخرتيكما من الركل المبرح وأعزف أنا الدرامز عوضاً عن ذاك النذل الذي تهرب من موعده.

صفق (ياسر) مبتهجاً كمن وجد ضلته

- نعم! لقد أخبرتني (ناهد) من قبل إنكِ تجيدين عزف الدرامز و..

قاطع (تيمور) حماس (ياسر)

- إجادة عزف الدرامز لهو أمر مختلف كل الاختلاف عن

العزف كـ(جون بونهام) وجه (تيمور) حديثه لـ(جيهان) وهو يتفحصها من أخمصها حتى رأسها وكأنه يكشف عن آلة موسيقية قبل شراءها: اعذريني، لا أظن أن المراهقات الهاربات من آبائهن قادرات على العزف مثل (بونزو) و..

- مثير للشفقة!

قالتها (جيهان) ضاحكة لتقاطع (تيمور) بتحقير.

- المعذرة؟

طرقعت علكتها بغل وتكلمت وعيناها تتقدان غضباً وإصراراً

- أتظن لأنك فككت أزرار قميصك وأطلت شعرك كـ(روبرت بلانت) صرت ببراعته في الغناء ولك أن تحكم على إجادتي للعزف حتى دون أن تسمع عزفي؟ فقط لكوني فتاة مراهقة كما تقول؟ أتظنني عاجزة عن قرع الدرامز كـ(جون بونهام) فقط لأني بنت تصغرك سناً؟ حسناً، دعني أفاجئك يا غريبي المظهر وبدائي العقل، مدرب الدرامز الخاص بي، يدعونني (بونزو)، ليس لإني أحب (جون بونهام) وأحفظ كل مقاطعه الصولو وليس لإني أماثله براعة فحسب، بل لإني أبرع منه نظرت إلى ساعتها ثم أردفت بالثقة ذاتها: والآن، أمامك عشرة دقائق لتحشر رأيك فيّ وحكمك عليّ بثقب أنفك

الصغير وتصعد معي إلى المسرح وكلك إيماناً بأن براعتي ستخطف منك الأضواء يا مسطح الفكر.

بصقت علكتها على حذاءه متعمدة ولم تنتظر أجابته، بل أدارت ظهرها وتركته لتدخل ضاربة الأرض بكعبها العالي واثقة من أنهم سيتبعونها.

وقد كان.

خلال عشر دقائق كانت الفرقة جاهزة.

صعدت (ناهد) المسرح بالتامبورين النجمي وأعد عازف جيتار الباص أسلاكه بينما عدّل (تيمور) ارتفاع الميكروفون وضبط أوتار جيتاره الإلكتروني ووقف على مقربة من (جيهان) التي خلعت سترتها وإكسسوارتها كي لا تعرقلها ثم أحكمت عقص شعرها.

مال (تيمور) عليها وهمس

- سنبدأ بأغنية Whole Lotta Love، إن كان إيقاعها صعباً عليك يمكننا أن..

- يمكنك أن تذهب للجحيم، لا إيقاع يصعب علي.

على الرغم من أن الغرض الوحيد من ردها هو إهانته، إلا أنه ضحك من فظاظة ألفاظها وردودها العنيفة كما يضحك

الكبار عند سماع الأطفال يسبون للمرة الأولى.

بابتسامة ساخرة، أنهى (تيمور) تحضير أسلاكه ونظر للجمهور المتلهف لموسيقى الروك أند رول.

قدم فرقته للحضور ثم التفت وهمس لرفاقه الموسيقيين

- واحد، اثنان.. واحد، اثنان، ثلاثة، أربعة.

بدأ أولاً بالعزف والضرب على أوتاره بهدوء ثم تبعه عازف الباص ثم بدأ (تيمور) بالغناء وهو ينظر لـ(جيهان) الممسكة بعصيها ومنتظرة لحظة عزف الدرامز

- أنتِ بحاجة للهدوء.. عزيزتي أنا لا أخادعك.. سأعيدك إلى المدرسة.. انظري بداخلك.. فأنتِ بأعماقك يا عزيزتي.. تريدين حبي.. سأعطيكِ حبي.. سأعطيكِ حبي.

ابتسم بتحدي وهو يعرف أنه قد حان وقت عزفها للدرامز ولكن الأمر كان كالصاعقة.

لقد كانت محققة، لم تكن تقلد (جون بونهام) الشهير بـ(بونزو)، بل كانت تفوقه براعة.

بخفة ودقة قرعت الدرامز مستخدمة طرفي عصيها. تضرب هنا بالطرف السفلي وهناك بالعلوي وتستعمل يدها اليسرى بنفس مهارة يدها اليُمنى فطارت بين الطبول

البلاستيكية المشدودة والصنوج النحاسية وضغطت بقدمها على البدال ليضرب جلد الطبلة السُفلية الكبيرة وظلت تنتقل بتلك السرعة المدهشة بين كافة قطع الدرامز حتى تخيلها (تيمور) للحظة أخطبوطاً له ثماني أذرع كى تتمكن من ضرب كل تلك الأجزاء بهذه السلاسة والخفة.

نظرت له رافعة حاجبها وكأنها تود أن ترى نظرة الخسارة على وجهه ولكنه لقى ابتسامتها الظافرة المغرورة بنظرة ولهانة ليبدأ جسده بإفراز هرمون الأوكسيتوسين ويحذره عقله من الإعجاب بفتاة لم يعرفها سوى منذ عشرة دقائق ولم تبادله سوى كلمات التوبيخ، ولكنه – وكأغلب الذكور – انجذب لسليطة اللسان التي تجيد تهذيبه وتأديبه.

***

عزفوا ثلاث أغان و بكل أغنية كانت تبهره فيراقبها بالتصوير البطئ وذيل حصانها يتطاير وعصاها تحلق فوق الدرامز وشفتاها المزينتان بالحمرة تكرران كلمات الأغاني التي تحفظها عن ظهر قلب وجبينها يتصبب عرقاً من فرط الحركة وحرارة المكان الذي احتنق بسبب تجمهر الشباب حول المسرح والتصفيق والرقص بحماس.

شعر (تيمور) بالنشوة وهو يعزف جيتاره لينهى أغنيته ويشرب الماء بينما تمسح (جيهان) يديها المتعرقتين وتنتظر

أن تعرف ما الأغنية التالية متجاهلة إشارات (ناهد) الطفولية وهى تخبرها أنها تعزف بشكل رائع ولكن ما لم تستطع أن تتجاهله هو دخول الشرطة المفاجئ ومعهم الشاب الذي ضربته بالزجاجة وقد عصب رأسه وهو يشير صوبها للضابط.

التفت لها (تيمور) بالابتسامة الهادئة نفسها

- سأترك لكِ حرية اختيار الأغنية التالية.

نهضت عن الدرامز فجأة وتركت عصيها وهى تنتشل سترتها بسرعة عن الأرض

- يجب أن أهرب.

- مِمَن؟

- من الشرطة، يا فطين.

قفزت سريعاً عن المسرح من الخلف باللحظة نفسها التي لمحها فيها الشرطي.

همت (ناهد) أن تسبقها ولكن (جيهان) صاحت بها

- لا تتبعيني.

لم تكن تعلم المكان جيداً ولكنها تعرف أنه يستحيل أن

تخرج من الباب الأمامي لأنها إن فعلت سترتطم بالشرطي.

ركضت وسط الشباب باحثة عن مخرج يجنبها الشرطة.

تلفتت بين الجمع البشري الهلامي وهى تدفعهم بكل ما أُتيت من قوة حتى تختفي عن نظر الضابط إلى أن استطاعت أن ترى ممراً طويلاً لا تعلم إلى أين قد يؤدي ولكنها خاطرت وكادت أن تصل إليه حتى شعرت بيد تجذبها فانتفضت وكوّرت قبضتها بشكل دفاعي ولكنها وجدته (تيمور) الذي قرر أن يرشدها للمهرب قائلاً

- من هنا.

تبعته بلا جدال.

قادها إلى زاوية بمؤخرة الصالة خلف المسرح تؤدي للباب الخلفي.

خرجت معه من الدفء إلى برودة ديسمبر القارصة فلبست سترتها وهى تجري برفقته حيث هدوء الليل الذي لا يقاطعه سوى ثرثرة سكان البنايات المحيطة بالملهى.

- سيارتي بالباب الأمامي.

- لن تجدي بالباب الأمامي سوى الشرطة والأصفاد، اتبعيني.

جذبها إلى الزاوية حيث دراجته النارية برتقالية اللون والمرسوم عليها شعار فرقة ليد زيبلين.

ركب دراجته وأدار محركها وانتظر (جيهان) لتركب خلفه وهو يقول ساخراً

- أعتذر منك، لا أملك خوذة لأحمي رأسك الثمين.

- ومن أخبرك إني بحاجة للحماية؟

صعدت خلفه على الموتوسيكل وللمرة الأولى، سمحت لغيرها أن يقود دربها.

***

كانت تجهل جهتهما ولكنها استمتعت بالرحلة.

ظل الهواء يراقص شعرها وعلى الرغم من البرودة التي تلاطم ملامحها الأوروبية، إلا أنها استمتعت بالأدرينالين وهو يداعب حواسها كلما زادت سرعة المحرك وعَلَا زئير عجلات الدراجة على الأسفلت ومازالت الأغاني التي عزفتها مع (تيمور) على المسرح منذ دقائق تتردد بأذنيها ولازالت تشعر بيديها تقرعان الدرامز فبقت على هذه الحالة مغلقة العينين لثلاثين دقيقة حتى شعرت بالمحرك يتباطأ.

فتحت عينيها وتلفتت حولها لتجد نفسها بتلك الهضبة

الصحراوية التي تتناثر فوقها سيارات العشاق المتبادلين القبلات تحت غطاء الليل.

زفرت (جيهان) بضيق بينما نهض (تيمور) عن دراجته ناظراً إليها وهي تقول

- يا لك من وضيع!.

- ماذا؟!

- إن كنت تظن إنك جلبتني للمقطم ولعبت دور المغوار الذي سينقذني من الأشرار لتختلس مني بضعة قبلات، فيالك من أخرق مثير للشفقة، فالوصول إليّ يتطلب أكثر من ذلك.

ثبت دراجته أرضاً ثم نزل من عليها وهو يعلق على كلامها متهكماً

- أتقصدين طلب يدكِ من أبيكِ؟

- يالك من مقيت! زفرت غير مرتاحة من الحميمية الطاغية على المكان: أعِدني للديسكو.

- لِمَ التوتر؟ ظننتك مغامرة لا تحتاج إلى الحماية.

- أنا كذلك، ألم ترى ما فعلته بذاك المتحرش؟

- لا أظن العنف حلاً لأية مشكلة. كان بإمكانك محادثته،

توبيخه، أو إبلاغ أمن الديسكو.

- لِمَ لا توفر عظتك لنفسك وتعيدني إلى سيارتي يا صاحب الوشم؟

ابتسم وهو يغمزها

- أعجبكِ وشمي؟

وضعت يدها على جبينها وقد أرهقتها محاولاته لإغاظتها فهمست

- يا إلهي.

- حسناً، فقط لأوضح لك الأمور، لم أتعمد إحضارك لهنا، فأنا أتي إلى المقطم بعد كل عرض برفقة هذه الحلوة.

مد يده بجيب سترته ليخرج ظرف ورقي صغير مطوي بداخله وريقات بحجم الأنملة مرسوم عليها جيتار صغير.

نظرت له (جيهان) بفضول فشلت في أن تخفيه

- ما هذه؟

- طوابع السيلوسيبين.. اسمها المعملي ثنائي إيثيل أمين حمض الليسرجيك.

- اللعنة، أى اسم معقد ذاك؟

- بل هو اسم عذبٌ كمفعولها.

- أتقصد أن هذه الوريقات هى مخدرات؟

- مهلوسات. شتان الفرق بين الاثنين.

- تعرف الكثير عن العقاقير بالنسبة لعازف جيتار.

- هذا يا صغيرتي لأنني تخصصتُ بالكيمياء بجامعة ميديلسيكس. وتلك الطوابع هى نسخة حسنتُها بنفسي وعدلتها لتكون أقوى من الـLSD.. أتودين تجربتها؟

- أنا أحترم عقلي أكثر من ذلك.

- الإنسان الدائم السيطرة على عقله فظ، جاف، عديم الإبداع. الإبداع لا يولد إلا حين تطلق لعقلك العنان. على سبيل المثال، فرقة البيتلز وليد زيبلين وجيم موريسون وسلفادور دالي وفرويد وكل مبدع بالمجتمعات الحديثة كان يتعاطى العقاقير المهلوسة ليدخل عالم سريالي ويتوه برحلة متفجرة الإلهام يخرج منها بعصارة الإبداع الفني وحتى الحضارات القديمة، فعلى سبيل المثال، حضارة المايا كانت..

- لِمَ تظنني مهتمة بالاطلاع على تاريخ العقاقير المهلوسة؟

- حسناً، لا داعي للصياح وضع نصف طابع على طرف لسانه وانشغل بامتصاصه بينما أعاد الباقي للظرف الورقي

ودسه بجيبه: وصلتني رسالة إنك فتاة شرسة لا تروض.

- أنت أحمق.

- وأنتِ حقاً تجيدين عزف الدرامز.. أقر لك بذلك وأسحب أي كلمة تفوهتُ بها الليلة بغرض السخرية منك والتقليل من شأنك.

أخيراً وللمرة الأولى منذ أشهر، ابتسمت راضية.

- أتجعلك الطوابع أكثر تهذيباً؟

- بل أكثر صدقاً.. وعليه، يمكنني أن أعبر لكِ عن مدى إعجابي بشخصيتك الجامحة ونظراتك الغاضبة وحتى لسانك السليط الذي يجوز تطبيق حد القطع عليه.

اتسعت ابتسامتها وبدأت تنتبه أكثر لتفاصيل عازف الجيتار، على الرغم من قميصه البرتقالي المضحك إلا أنها وجدته جذاباً وصاحب كاريزما طاغية.

أشاحت بنظرها بعيداً عنه حتى لا تفشي عيناها سرها وقالت بنبرة فشلت في المحافظة على حدتها

- لست بكامل قواك العقلية.

- ولكني بكامل قواي الروحية تأمل السماء: تلك الطوابع تجعلك تبصرين تفاصيلاً لا تراها عينك التي بمنتصف

وجهك ولا حتى الكامنة بحصين عقلك، بل العين النابضة بقلبك والتي تبصر حقائق الكون وتدرك أن كل النقاط المبعثرة بأقصى أطراف العالم يربطها خيط خفي يمكنك أن تتحسسيه بروحك وليس بعقلك تنهد محملقاً بالأفق: أتعلمين ما هو الـسوندر؟

- لم أسمع هذه الكلمة بحياتي.

- إنه مصطلح بعلم النفس الحديث، يفسر الشعور المفاجئ الذي ينتاب المرء بأوقات الصفاء الذهني ليدرك أن لكل من حوله حياة مفصلة ومعقدة تماماً كحياته وأن البشر ليسوا مجرد غرباء يمرون أمامك بالشارع، أعني.. انظري حولك، تأملي عن كثب.. هؤلاء ليسوا مجرد ذكور وإناث أتوا لتلك الهضبة فقط لاختلاس القبلات سراً، بل هم أحبة قصصهم كقصص الروايات والأفلام، وإن أنصتي لما يقولونه بين القبلة والأخرى ستدركين إنك بصالة سينما تتنوع بها العروض السينمائية.

- هذا إن كنت ترتاد سينمات الأفلام الإباحية.

قالتها ساخرة متهكمة فقط لتغطي على مدى إعجابها بتلك الفكرة الشاعرية التي راقتها رومانسيتها التي لم تألفها من قبل ولكن درعها الدفاعي لم يرتخ بعد ورفضت مجاراته وظلت تذكر نفسها أنه تحت تأثير مخدر شاعري المفعول

وعلّ كل تلك الترهات العاطفية والفلسفية التي ينطق بها ستختفي مع انتهاء مفعول ما ألصقه بلسانه منذ لحظات، وعليه، عاركت شعور الإعجاب الذي وخز قلبها.

- أظنها فكرة في..

قاطعها وقد توقف عن النظر حوله وركز نظره عليها

- أنتِ علي سبيل المثال لكِ سحر يروقني وقصة أود أن أعرف أدق تفاصيل حبكتها.

- كلا، أنت تظنني مثيرة للاهتمام فقط لأنك خسرت رهانك.

- أى رهان؟

- رهان أني الشقراء البلهاء التي تظن نفسها أمهر من الأسطورة (جون بونهام) وكنتَ تطمح أن أجعل من نفسي أضحوكة على المسرح.. أنت لم تعجب بي، لقد راقك شعور التحدي فحسب.

- لِمَ تظنين نفسك غير جديرة بالإعجاب؟

ضحكت متوترة حين ضرب وترها الحساس ثم صمتت وأطرقت للأرض بينما أردف وهو يتابع تفاصيلها بعينيه الكحيلتين التي تحاشت النظر إليهما

- أعلم أن صوتك العالي وألفاظك النابية ليسا سوى

صرخة وطلب للاهتمام. وبالطبع لا أعني النوع السطحي من الاهتمام حيث أمدح حسن عينيك وشعرك وشفتيك، بل ذاك الاحتواء الصادق الذي أظنك حُرمتي منه مبكراً. أعني.. اللعنة، أنتِ ببكيرة عمرك، لِمَ جعلتك الحياة بهذا العنف، يا صغيرتي.

تلاشت ابتسامتها وتبدلت نظرات الإعجاب بشعور بالخطر حين أدركت وتيقنت من أنه اخترقها وكشف كل المشاعر التي دفنتها بأسفل أمعائها.

همست له وهى تركل بعض الحصى بعنف

- أود الرحيل.

- تعنين الهرب؟

صاحت به غاضبة

- أتظن نفسك فرويد لتحللني بتلك الطريقة؟ ما خطبك؟

ابتسم لها بهدوء وأجابها بصدق

- لا شئ، أنا أماطل معك بالحديث كى نبقى سوياً أطول فترة ممكنة.

هدأت ثورتها وواتتها الجرأة لتبادله النظرات.

راقبت ملامحه وهواء ديسمبر يداعب شعره المموج، وكلما أطالت النظر شعرت بالسكينة على الرغم من أن صوتاً بمؤخرة رأسها يحذرها من الصلة التي بدأت تُخلق بينهما، إلا أنها تمكنت من إخراس ذاك الوسواس ولم تعد تسمع سوى دقات قلبها وحفيف الرياح ووقع همساته.

اتسعت أبتسامة (تيمور) ليضاعف حُسن غمازتيه وهو يهمس

- أتودين أن أعرفك على كلمة جديدة؟

هزت رأسها متظاهرة باللامبالاة فأردف

- أوبيا.. إنه الإحساس السحري الذي يجعلكِ تشعرين بالحماس المفرط الممزوج بالضعف والتوتر بسبب النظر المطول بعيني شخص يُعجبك بشدة.. وهذا ما أشعر به تجاهك الآن.

ودت أن تخبره أنها تبادله الشعور ذاته وأنها لم تشعر يوماً بالسكينة والقلق في آن واحداً كالليلة.

كادت أن تتمكن منها الشاعرية، أحست (تيمور) يقترب منها أكثر من اللازم ناظراً لشفتيها مائلاً بعنقه صوبها فقررت أن تصفعه لتوقظه من تأثير ذاك المخدر الذي هيأ له أنها ساقطة قد ينفرد بها بالمقطم بعد التعرف عليها ببضعة ساعات.

- أخبرتك أن الأمر سيتطلب أكثر من ذلك.

هكذا همست له بابتسامة مثيرة.

كان هذا تعليقها ورد فعلها الوحيد على محاولة (تيمور) الجريئة لتقبيلها.

لم تصرخ به أو توبخه بحدة، لم يرسل عقلها أمراً بعقاب حاد لتطبقه على (تيمور)، بل اكتفت بأن جعلت من نفسها صيدة صعبة القنص.

ابتسم وكأنه قبل تحديها وأرجع رأسه بكياسة وهو يخبرها

- أهذه دعوة لمقابلة أبيكِ؟

ضحكت ساخرة

- اللعنة، ذاك المخدر قوي.

- صدقيني، أنا لا أعرف مزاحاً بتلك الأمور.. ألم أخبرك أن كل النقاط يربطها خيط خفي؟ آرانا نقطتين مبعثرتين بأقصى الشمال والجنوب قرر القدر جمعهما بخيط سحري يُدعي الانجذاب الكيميائي الفوري.

- توقف عن الهذيان.

- أنا لا أهذي يا.. صحيحٌ، ما اسمك؟

ضحكت ساخرة: أنت على وشك طلب يد فتاة لا تعرف حتى اسمها؟

- لا أعرف اسمها ولكني أبصر جوهرها، ألا ترين أن هذا الأهم؟

- أنت مخبول.

- أنتِ على حق، فعلى الرغم من أننا صرنا بسبعينات القرن العشرين، إلا أنني اخترتُ أن أظل المؤمن بحب الأربعينات ورومانسية الخمسينات وسلام الستينات. فلتدعني بالمغرور ولكني أراني أستحق أن أحيا حباً مثيراً كالذي يتحاكون عن جنونه بالروايات والأفلام الأوروبية.. لذا دعيني أسألك، ألا تودين أن تصبحي بطلة روايتي الرومانسية؟

ودت أن تصرخ بنعم ولكنها أخفت ذلك بضحكة متوترة ونظرة مطولة له ثم قالت

- حسناً، إن كنت تؤمن بأن القدر هو الذي جمعنا، لِمَ لا نترك له أن يُقرر إن كنا بطلي رواية رومانسية ألفها أم مجرد شخصيتين ثانويتين بخلفية قصة حب اثنين من المنشغلين بتلثيم شفاه بعضهما هنا.

- وكيف هذا؟

- فلندع القدر يدبر لنا موعداً. سنترك الكون يجمعنا دون تدخل منا وليكن ذلك بوقت ومكان نجهله، أى أننا إذا التقينا مجدداً بديسكو الكينج لن نعتبر هذه إشارة ولن أعطيك اسمي أو عنواني أو رقم هاتفي سندع الصدفة تَحبِك روايتنا.

- أنتِ تعرفين أنه يمكنني أن أحصل على كافة بياناتك من (ناهد) و(ياسر)، أليس كذلك؟.

- بلى، ولكن هل ستتحمل عاقبة أن تغش القدر؟

تنهد مفكراً وصمت ليزن كلامها حتى انتهى به الأمر وهو يسألها

- وماذا إذا لم نلتقِ أبداً؟

- إذاً، فليس من المقدر أن يتقاطع دربانا.

***

تقاطع درباهما بربيع ١٩٧٤.

كان حفل شم النسيم بنادي المعادي الاجتماعي. قررت (جيهان) أن تنعزل عن عائلة خالها فتركت الأطباء الأربع يناقشون خطورة الفسيخ على الجهاز الهضمي وضغط الدم والأملاح وجلست على المقعد الخشبي أمام حلبة التزحلق التي تتوسطها نخلتان متعانقتان.

لم تمانع أن تختلس سيجارة بالزاوية حتى تنفس عن الضجر والوحدة اللذين يصاحبانها أينما كانت.

أنهت سيجارتها ومضغت علكتها لتغطي على رائحة النيكوتين ثم قررت أن ترتدي حذاء تزلجها.

دست الواكمان الأزرق الصغير - الذي اشتراه لها أبوها من اليابان - بجيب سترتها الرياضية ثم انطلقت وهى تنصت لشريط ليد زيبلين ٢ ليملأ أذنيها صوت (روبرت بلانت) مغنياً الأغنية التي قرعت الدرامز على إيقاعها خلف (تيمور) وهنا امتلأ أنفها برائحة عطره الذكوري وبدأ وجهه يسود الرؤية فلم تعد (جيهان) ترى غير تفاصيل ملامحه بين وجوه المتزلجين حولها.

ظلت تفكر بـ(تيمور) وتعيد الشريط بلا هوادة حتى فرغت بطارية الوكمان وآلماتها ساقاها بفضل ساعات متتابعة من التزلق فخرجت من الحلبة وجلست تشاهد شمس المغيب المنعكسة على بحيرة البجع المحيطة بحديقة النادي وظلت تتساءل.

لِمَ سمحت للشاعرية والبلاهة أن يقوداها لذاك القرار الغبي؟

لِمَ لم تعطه ميعاداً لتلقاه ثانية كما يفعل باقي البنات

فحسب؟

هكذا لامت نفسها وهى تطرقع علكتها غيظاً بينما رمقتها إحدى المسنات شزراً.

زفرت (جيهان) وقررت أن تتسلل من النادي لتتجول بشوارع المعادي.

لم تكن تأتي لهذه المنطقة إلا لبعض التجمعات العائلية الرتيبة بالنادي، ولكنها أحبت شوارعها الأوروبية الطراز حيث الفيلات المتفرقة التي يحيطها شعور العزلة الغربية ورائحة العُشب والشجر المزهر وكأن الحي حديقة ضخمة نبتت بها المنازل متوارية على استحياء بين جريد نخيله وأغصان أشجاره لتجاور أعشاش البلابل والحَمَام في سلام.

لا تعلم كم مر عليها من الوقت وهى تتجول، ولكن الليل خيّم فقررت أن تعود للنادي قبل انتهاء الحفل واكتشاف خالها لغيابها عنهم بلا استئذان.

اختلست سيجارة أخيرة أنهتها قبل دخول النادي ورشت عطرها ومضغت علكة جديدة واتجهت للحديقة الرئيسية حيث من المفترض أن تجد (آل مخيون) ولكنها لم تجدهم بين الجالسين وأدركت السبب حين سمعت موسيقى الروك أند رول التي يعتبرونها ضجيجاً شيطانياً ويأبون الإنصات

إليه.

حين نظرت صوب المسرح فهمت!

فَهِمتْ لِمَ أصرت (ناهد) على أن تأتي (جيهان) معهم إلى النادي ولِمَ حاولت بكل قوتها أن تجبرها على ارتداء فستان ووضع بعض مساحيق التجميل وانزعجت حين التزمت (جيهان) بالجينز والسترة الرياضية وذيل الحصان.

وَعَتْ لِمَ أقسمت لها (ناهد) على أن الحفل المسائي لن يكون مملاً هذا العام.

تداركت تدابير (ناهد) حين نظرت للمسرح ورأته يغني ويعزف على إيقاع أغنية Since I've Been Loving You وخفق قلبها وتعرقت يديها بشكل لا إرادي.

مغمض العينين ونسمات ليل الربيع تمشط شعره الأسود، غنى (تيمور) وهو يعزف أوتاره بريشة جيتاره غائباً عن عالمه، لا يسيطر شيءٌ على حواسه سوى الموسيقى وهو ينشد

- لقد فعلتُ ما بوسعي.. لأنني أحبك يا حبيبتي.. أحبك يا عزيزتي.

انغمس بعزف الجيتار ثم فتح عينيه صوب الجمهور

لتتحول نظراته صوبها مباشرة بعد أن كان تائهاً في الأرض وكأنها بوصلته التي لم يخذله الكون في إرشاده صوبها.

ابتسم وهو يبادلها النظرات ويكمل غناءه وكأنه يهمس بأذنيها

- كيف لي ألا أحبك يا حبيبتي، يا أمي، يا حبي، يا فتاتي الصغيرة.

ترك الميكروفون ونزل عن المسرح حاملاً جيتاره بين يديه وهو يواصل العزف ليمشي بين الشباب المتحمسين للموسيقى والفتيات المفتونات بكاريزما (تيمور) الهائم ولكنه اخترق الجمع على مهل و اقترب منها بتؤدة وهى فاغرة الفم لامعة العينين تجاري خطواته متمايلة على الموسيقى حتى جعلهما الكون يلتقيا بعد أربعة أشهر من لقائهما الأول الذي فجر بداخلها مشاعر لم تظن يوماً أنها قادرة على الإحساس بها.

وهكذا تشوش ما حولهما ولم يعد (تيمور) يبصر سوى (جيهان).

اتسعت ابتسامته فأجزمت أنه أوسم من رأت فتضاعفت نبضات قلبها وكأنه يود أن ينفذ من صدرها ليقدم نفسه قرباناً لذاك الفيلسوف الموسيقي.

مال عليها هامساً لتطغى رائحة أنفاسه الطيبة وعطره المثير عليها مجدداً

- فرقتي ينقصها عازف درامز وقلبي ينقصه حبيبة، فما رأيك أن تكوني الاثنتين؟

***

أمست تتسلل كل ليلة من شقة خالها لتجد (تيمور) ينتظرها.

يتلقفها وهى تقفز من النافذة ثم تصعد خلفه على دراجة الهارلي البرتقالية ليطيرا حتى ديسكو الكينج ليعزفا الروك أند رول طيلة الليل إلى أن يتساقط الشباب على الساحة من فرط الرقص بانتهاء فقرتهما التي صارت ثابتة ومدفوعة الأجر.

بالفترة من الربيع وحتى الصيف، كانت قصة حبهما الملتهبة نبتة تحتاج الكثير من الاهتمام لتزهر بشكل صحيح، فانشغل الاثنان بالتعرف على بعضيهما عن كثب.

حكى لها أنه مصري من أم إنجليزية، أمضى طفولته بمصر حتى الابتدائية ثم سافر مع والديه إلى لندن حيث تطلقا بعد استقرارهما بإنجلترا بعامين فقضي مراهقته وسنواته الجامعية متردداً بين مسكن أبيه الصيدلي بلندن وبيت

والدته أستاذة الفلسفة بأوكسفورد، مما جعلها تجد تعليلاً لنظرته الغريبة للحياة وتفسيره الفلسفي الشاعري للكون.

درس (تيمور) الكيمياء بجامعة ميديلسيكس حيث الردهات الفسيحة والأسقف الزجاجية التي اعتاد أن يستلقي على المقعد أسفلها ليتأمل ضوء السماء وينصت لخرير الأمطار الهاطلة والمنزلقة على جوانبها الشفافة.

كان يرى مستقبله بمعطف أبيض بأحدى المعامل المصرية بالقاهرة، فهو لم يحب الحياة بلندن الرمادية المطيرة وكان يتوق لشمس مصر الدافئة.

كان مصمماً على الارتقاء بمجال مضادات السموم وطمح أن يحقق رقماً عالمياً في اكتشاف أكبر عدد من الترياقات المحاربة للسموم.. هكذا رأى نفسه حتى الخامس والعشرين من أكتوبر بعام 1968.

انفصل صديقه المقرب (جوناثان) عن حبيبته (ماري)، فظلت معه تذكرة إضافية لحفل لفرقة ناشئة مسماه ليد زيبلين كان قد ابتاعها لحبيبته قبل انفصالهما.

بمعنويات محبطة، طلب (جوناثان) من (تيمور) أن يصاحبه للحفل حتى لا تُهدر التذكرة، وبالفعل، ذهب الصديقان إلى القاعة الكبرى بجامعة ساري في باترسي

بلندن.

كانت الحفلة الأولى للفرقة ولم يكن (تيمور) قد سمع عنهم من قبل ولم تكن تستهويه سوى موسيقى الجاز التي يسمعها مع أمه ولكن بذاك اليوم وجد أربعة شباب طوال الشعر والسوالف، غريبي الملبس، يعزفون موسيقى دخيلة عليه ويقومون بحركات مريبة مطوحين رؤوسهم ذهاباً وإياباً ومطرب فرقتهم يغني بطبقة صوت كان يدندن بها (تيمور) بحمامه ويظنها مثيرة للضحك ولكنه تفاجئ حين وجد إيقاع قلبه يتغير مع تغير إيقاع الجيتار.

أصابته لعنة الروك أند رول حين سمع أغنية Communication Breakdown للمرة الأولى.

باليوم نفسه، ذهب لمتجر الموسيقى و اشترى جيتاراً إلكترونياً باهظ الثمن يعلم أن أبيه سيوبخه على شراءه بهذا الثمن دون فصال، ثم جمع ألبومات تلك الفرقة.

ظل ينصت لموسيقاهم طيلة الليل بالقبو وبات يحاول فهم طريقة عزف الجيتار ولم يهدأ حتى استطاع أن يطنطن بعض أوتاره.

حمل جيتاره مع طلوع الصباح وذهب لمدرسة لتعليم الموسيقى ليلتحق بدورة مكثفة للمبتدئين بالغناء وعزف

الجيتار وبالظهيرة قرر أن يؤسس فرقة روك أند رول بالجامعة.

كآلاف الشباب آنذاك، صارت فرقته تعزف ببعض الحانات الرديئة التي لا يبالي مرتادوها السُكارى بالهراء الذي يُعزف بالخلفية ولكن (تيمور) لم يهتم باستحسان من حوله له، كل ما كان يريده هو الاستمتاع بشغفه الموسيقي الجديد.

مع كل وتر يضربه وكلمة يغنيها، تآكل حلمه وتلاشى طموحه في أن يصبح عالماً كيميائياً وصار يرى نفسه عازف جيتار ومطرب ينشر الروك أند رول بمصر ليُدخل تلك الموسيقى الدخيلة على مسامع الشرق.

شجعته أمه ولكن عارض أبيه الفكرة.

بعد الكثير من المناقشات الوجودية والتأكيد على حرية الفرد في اتخاذ قراراته واختيار مستقبله وتحديد مصيره، لان الأب وترك وحيده يحمل حقائبه ويعود للقاهرة ليقطن بشقتهم القديمة بالدقي لينشرح صدر (تيمور) فور أن فتح النافذة للمرة الأولى وتفاجئ أنها تطل على ديسكو الكينج.

عرف المنصة التي سيبدأ منها بنشر شغفه ولكنه كان بحاجة لفرقة.

اتبع طريقة الهيبي وطرق كل باب بعمارته باحثاً عن

موسيقيين ليقابله معظم سُكان العمارة أصحاب الدهون والحمالات البيضاء والبيجامات الكاستور، بنظارات ممتعضة داعينه في سرهم بالمخنث ذي الشعر الطويل، ولكنه أصر وأكمل بحثه حتى فتح له الباب (ياسر) ذو السوالف السخيفة والدوغلاس المضحك.

قدم له (تيمور) نفسه وشرح له حلمه باقتضاب ولأول مرة لاقى أجابة

- بالطبع أعرف موسيقى الروك آند رول، أنا من محبي فرقة كوين.. أجد فكرتك عظيمة ولكني لا أجيد عزف أية آلة للأسف.

- لا بأس. شكراً للتشجيع على أية حال.

- انتظر، يمكنني مساعدتك، أعرف بعض الموسيقيين بالجامعة، كما أنني بعامي الأخير بكلية التجارة ولا شك أن فرقتك ستحتاج لشخص مثلي يدير أعمالها وجولاتها، أليس كذلك؟

اختار مع (ياسر) أعضاء الفرقة وقد فرض عليه خطيبته (ناهد) التي بالكاد تفهم كيفية الضرب على أتفه الآلات الموسيقية التي صنعها الإنسان.. التامبورين.

وهكذا، ظلوا يعزفون بحفلات الجامعة والنوادي

الاجتماعية وقد لاقوا استحساناً من الشباب المفضلين للموسيقى الغربية عن الطرب الشرقي ولكنه كان يضع ديسكو الكينج نصب عينيه بسبب نوعية مرتاديه من الفنانين والمنتجين، حتى أتت الليلة السحرية التي نال فيها فرصته بالفن وكذلك بالحب.

كانت (جيهان) تحب الإنصات لـ(تيمور) وتراقب إماءاته وحركة أصابعه وهو يتكلم كأنه يعزف آلة خفية، وتتوه بملامحه حين يسند وجهه على كفه لينصت إليها باهتمام لا تألفه وهى تشاركه أفكارها وتحدثه عن أبيها ومشفى الولادة الذي أنشأه مع خالها.

لزم الأمر بضعة أشهر حتى استطاع (تيمور) أن يخترق أحاديثها السطحية عن عائلتها ويكتسب ثقتها لينصت لها وهى تتحدث بضيق وحرج عن حلم أبيها بأن ينجب صبياً إلا أن رحم أمها لم ينبت سواها وعليه اضطر والدها أن يُعدِل المتاح كي يناسب ذوقه وقرر أن يتخذ (جيهان) ذكراً.

علمها لعب الكرة وركوب العجل والرماية والملاكمة وصيد البط الفيومي حتى أنه كان يناديها (جو) عوضاً عن (جيجي) كما تفعل أمها.

تأثرت (جيهان) حين روت لـ(تيمور) عن كيف كان أبيها يمنعها من شراء الدمى وألعاب الفتيات ويصطفي لها

أصدقاءها من الصبية أبناء أقاربه وأصدقاءه المقربين ولا يُلبسها سوى السراويل والملابس الرياضية حتى أنه كان يجبرها على قص شعرها ليقنعها أن المظاهر والملابس الأنثوية ليست سوى دليلاً على ضعف عقل مفضلينها.

حفظها أن عليها بقوة المظهر والبنيان لا الدلال والإثارة كفتيات الليل الرخيصات، وحتى حين لاحظ اهتمامها بالموسيقى قرر أن يختار لها الآلة الأكثر ذكورية، فهي تذكر حين نصب لها الدرامز أخبرها أن عزفها عليه لهو تمرين ممتاز لعضلات الكتفين والمرفقين وهكذا سنمزج بين الفن والرياضة لنزيد جسدك المرتخي قوة.

علّه الشئ الوحيد الذي امتنت لأبيها فيما بعد لفرضه عليها.

وعلى الرغم من أنه حولها لذكر بديع الحسن، وجعلها منبوذة وسط كافة المجتمعات الأنثوية والذكورية لنظرتهم الدنيوية لها ولتصرفاتها الفظة غير المقبولة، إلا أنه لم يتوقف عن محاولات إنجاب صبي ولكن والدة (جيهان) كانت ضعيفة البنية، فقيرة الصحة لم يتم لها حملاً منذ أن وضعت (جيهان) حتى رُزقت بصبي في صيف ١٩٧٢، ولكنها لم تنج من ولادته المتعسرة.

لم تستطع (جيهان) أن تغفر لأبيها إجباره أمها على الحمل على الرغم من وعيه الطبي بوضعها الصحي المضطرب.

لم تقوَ على الحياة معه بعد أن تركتها أمها وانتقلت للعيش ببيت خالها الذي لا يقل صرامة عن أبيها.

لمعت عيناها حزناً وحاربت حتى لا تبكي متذكرة مرارة فراق أمها وقسوة أبيها الذي شوه هويتها ثم تخلى عنها حين صار له صبياً يحمل اسمه.

عانقها (تيمور) وهمس لها بأنه حصنها الآمن ولا داعي لأن تظل رافعة درعها أمامها حتى تخفي عنه دموعها، ولكنها أبت أن تلقى بكبرياءها عرض الحائط واكتفت بأن عانقته وابتسمت بامتنان فحسب وظلت تكبت دموعها.

أعادها للبيت قبيل الفجر بسويعات وشبك أصابعه لها لتصعد نافذتها حيث ألقت بنفسها على الفراش بجوار (ناهد) حتى انبثقت الشمس وحل الصباح مع زقزقة طيوره لتستيقظ (جيهان) بصعوبة على صوت حصى تلقى على شرفتها خلسة.

خرجت مسرعة لتجد (تيمور) واقفاً بالشارع أسفل نافذتها بأعين خضبتها قلة النوم بالحمرة وهو يحمل بين ذراعيه كل ما وقعت عيناه عليه بمحل لعب الأطفال من دُمى ودببة محشوة وهمس لها.

- لا أظن أن الآوان قد فات على اللعب بالدُمى، يا صغيرتي.

***

**يوليو، 1974**

على الرغم من أنها كانت دائمة التملص من الأعراس، إلا أنها كانت متحمسة لزفاف (ناهد).

ليس فقط لأنها ستحضر النهاية السعيدة لقصة حب (ناهد) و(ياسر)، بل لأنها ولأول مرة ستحضر الفرح ومعها رفيق.

لم تنزل ذراعيها عن عنقه طيلة العرس فتراقصا على أغنية تلو الأخرى حتى لاحظ خالها وزوجته التي نكزتها أكثر من مرة وجذبتها حتى الزاوية ونهتها عن تصرفات العاهرات تلك التي تمارسها علنية ولكنها لم تبالِ ولم تسمح لكلمات زوجة خالها اللاذعة ولا حتى رؤية أبيها – الذي أتى متأخراً بعد أن أنهى عمله بالمشفى فبارك ورحل دون أن يبادل ابنته كلمة واحدة – أن يعكروا صفوها أو يخترقوا هالتها الرومانسية.

ودعوا العروسين ثم عادت (جيهان) للمنزل حيث لم يتوقف الدكتور مخيون عن توبيخها.

- لقد قللتِ من شأننا أمام الحضور، كيف لكِ أن تسمحي لغريب أن يراقصك ويلامسك علنية.

أجابته بسخرية باردة

- حاولت أن أقنعه بالذهاب لمكان سري مثير للشبهات ولكنه أصر على الرقص بنزاهة أمام الجميع.

- متي ستتوقفين عن التحدث إلينا كالساقطات!.. أنتِ من (آل عزيز) و(آل مخيون)، ألا تدركين مكانة العائلتين! لو كانت أمك حية لما فخرت بأفعالك المشينة.

قطبت حاجبيها ولمعت عيناها بالدموع حين سمعت تلك الجملة ولكنها أبت أن تسمح لهما بهزيمتها بتلك المعركة، فابتلعت دموعها وكوّرت قبضتيها وأجابتهما بعنف

- حسناً، سأحسم لكم المسألة، أنا و(تيمور) سنتزوج.

- إن كان يود أن يتخذك زوجة لِمَ لم يقابل والدك؟

- كنا ننتظر حتى أنهي امتحانات الثانوية العامة وقد كان، أنا الآن مستعدة للتزوج منه.

- وما مؤهلاته؟ ما وظيفته؟ ما مصدر دخله؟ ما..

- ما دخلكما بهذه الأمور؟ الأمر يخصني أنا فحسب.

- عارٌ عليكِ، إن كنتِ تعيشين تحت سقفنا وتُطعَمِين من خبزنا، فأمر تسكعك مع غريب ورغبتك في الزواج منه لهو أكيد من شأننا.

- إن كانت معيشتي معكم هى ثمن لحريتي، إذاً فلتذهبوا

أنتم وخبزكم وسقفكم للجحيم.

***

لم تتفاجأ كثيراً حين طردها خالها من منزله بعد أن تطاولت عليه، فقد كانت تعلم أنها لن تمكث معهم للأبد وأن بطارية تحملهم للسانها السليط ستنفذ عاجلاً أم آجلاً، لذا، وبلا جدال، لمت رحالها واتجهت لفيلا أبيها.

فتحت لها مربيتها وعانقتها ثم أخبرتها أن أبيها بغرفته بالطابق العلوي.

وجدته جالساً بفراشه بجوار أخيها (نبيل) الذي حُرم من حنان أمه رضيعاً.

كان الوليد يغط في نومه العميق بينما انشغل أبيها بقراءة أحد المراجع الطبية المتخمة.

لمحها (عزيز) بطرف عينه وهى واقفة عند باب الغرفة حاملة حقائبها فسادت لحظات من الصمت الثقيل قررت أن تقطعها (جيهان) على عجلة.

- أبي أ...

- اعتذري لخالك وعودي لبيته.

- ألا تحتمل وجودي بالمنزل لهذه الدرجة؟

- لا أحد يحتمل معاشرتك في المطلق.

للمرة الثانية، كبتت دموعها وأجابته بنبرة عنيفة تخالف ما تشعر به من وهن.

- كلا.. هناك من يحتملني، بل ويحبني ويود أن يقضي الباقي من عمره معي.

- أشفق على ذاك المخنث ذي الشعر الطويل.. يجهل ما هو مقبل عليه.

- بل أنت الذي تجهل قيمتي استشعرت رعشة بصوتها فحاولت أن تستعيد قوتها: على أية حال، لستُ هنا للإقامة معك، وددتُ أن أعلمك إني سأتزوج من (تيمور).

- أنا لا أبالي.

- ولا أنا.. كل ما في الأمر إني وددتُ أن..

- أتعلمين.. أخيراً رفع عينيه عن الكتاب والتفت لها للمرة الأولى منذ أن وطأت غرفته: كثيراً ما أتسائل كيف أنبت رحم أمك الصالحة بذرة شيطانية مثلك وكيف انتهى الأمر بأن انتشل الله روحها الطاهرة وحرم وليدها منها وأبقاكِ أنتِ حية.

هربت منها دمعة رغماً عنها فمسحتها سريعاً بظهر يدها

بباس حتى لا يلمحها

- وأنا أسأل الله السؤال ذاته بكل ليلة، لِمَ جعلني يتيمة الأم وليس الأب.

طُردت للمرة الثانية لقسوة كلماتها.

ساعدتها مربيتها على استعمال الهاتف خلسة ثم خرجت في صمت ورفضت أن تأخذ منها أية نقود أو طعام وجلست على حيد الرصيف كالمشردة منتظرة الفرج.

لم يطل انتظارها حتى وصل على دراجته والريح تتسلل من أسفل أزرار قميص الفرح الذي لم يلحق أن يُغيره.

نزل عن دراجته مصدوماً حين رآها جالسة على الرصيف بمفردها في الظلام بتلك الساعة المتأخرة

- لِمَ لم تنتظريني بالداخل كما أخبرتك؟

اقتربت منه وهمت أن تصعد دراجته وهى تعافر لحبس دموعها فخرج صوتها مختنقاً مهزوزاً

- فلتبعدني عن هذا المكان فحسب.

أخذ عنها حقيبتها وقبل أن تتمكن من الجلوس على الدراجة جذبها وهى في حالة الضعف تلك وعانقها بحنان أبوي لم تحسه من قبل فألقت برأسها على صدره بوهن

وانكمشت بين ذراعيه كورقة خريف واهية.

همس لها بنبرة مطمئنة متحسساً شعرها

- لست مضطرة لكبت دموعك أكثر من ذلك.. هنا الآمان.

ازدادت رعشتها فاستسلمت ودفست وجهها بصدره وهى تبكي بصوت مكتوم لتتدفق دموعها على قميصه.

بهذه اللحظة، كانت كقنبلة موقوتة وهو خبير مفرقعات، استطاع أن يحتوي انفجارها بحرافية.

***

أعطاها مفتاح شقته بعد أن هدأ من روعها ثم حضر لها عشاءاً حسن مزاجها وخرج كالفرسان النبلاء ليبيت عند أحد أصدقاءه حتى تشعر بالآمان داخل المنزل.

استيقظت بالظهيرة على طرق الباب فعدلت ملبسها وخرجت متثاءبة وداعكة عينيها متوقعة أن قارع الباب هو (تيمور)، ولكنها تفاجأت حين وجدت (ناهد) العروس واقفة على عتبة الباب بابتسامة بلهاء.

سألتها (جيهان) مرتبكة

- ما الذي تفعلينه هنا؟

- أنسيت إنني أقطن بتلك البناية؟

- كلا، ولكن أليس من المفترض أن تكوني بشهر عسلك الآن؟

- يمكن للإسكندرية أن تنتظر يوماً إضافياً. فالليلة زفافك قفزت (ناهد) بحماس طفولي: أنتِ و(تيمور) ستتزوجان الآن.

فقدت (جيهان) النطق بينما دفعتها (ناهد) لغرفة النوم لتصفف لها شعرها وتضع لها زينتها وتلبسها ثوب الزفاف الأوروبي التصميم الذي حملته معها.

وضحت لها أن (تيمور) بعد أن تركها هاتف والديه ليخبرهما عن قراره بالتزوج منها وأن عليهما الحضور غداً لزفافه.

لم تتباطأ الأم التي ورّثت لابنها روحها الشابة المغامرة، وهرعت للمطار ولكن وبخه أبيه لإقدامه على خطوة مماثلة دون الرجوع إليه أو إلي العادات والتقاليد الشرقية الحميدة، ولكن بعد أن عبر (تيمور) عن حبه الشديد لـ(جيهان) وروى لهما عما بدر من أبيها وخالها في حقها، تعاطف الأب معها وتبنى قضية ابنه العاطفية ولاقى طليقته الإنجليزية بالمطار ليصلا للقاهرة صباحاً.

عرج (تيمور) على شقة (ياسر) ضارباً بتقاليد الصباحية عرض الحائط وطلب منهما أن يساعداه على تحضير العرس ففاجئاه بأنهما أكثر حماساً منه بل وسيؤجلان شهر عسلهما ليوم إضافي كي يحضرا العرس.

بمساعدة (ناهد) ووالدته، اختار ثوب الزفاف ثم بدلته وعاونه أبيه و(ياسر) وأعضاء الفرقة وبعض الأصدقاء على تحضير سطح البناية وفرشها بالسجاد والأضواء الليلية الرقيقة ورص الكراسي وحين هاتف صاحب ديسكو الكينج ليدعوه للعرس، قرر أن يكرمه بإرسال الجعة وأمهر راقصاته الشرقيات لتؤدي فقرة مجانية للمدعوين.

ببساطة ومعونة إلهية ثم دعم عائلي، تمت خطته بالدقة والعشوائية نفسيهما التي رسمها بهما.

انتهت (ناهد) من تزيين (جيهان) ونظرت للمرة الأخيرة لنفسها بالمرآة ولأول مرة، شعرت أنها حقاً أنثى فاتنة الحسن كما يدعوها (تيمور).

صعدت العروس مع صديقتها إلى السطح وشمس المغيب.

كان كل شئ بسيطاً، وحميمي الأجواء بشكل يأسر الحواس.

رائحة الورود الموضوعة حول كرسي العروسين، ضوء

المصابيح المعلقة برقة، لحن عازف الكمان الواقف عند مدخل السطح والذي بدأ عزفه فور أن أطلت عليهم العروس متأبطة ذراع (ياسر) الذي قرر أن يلعب دور وكيلها بهذه المناسبة.

تجلى (تيمور) مرتدياً أبهى حُلة رأتها (جيهان) من خلف عازف الكمان، واستقبلها بابتسامة جعلت قلبها يخفق ودموع الفرح تباغتها لتسيل على وجنتيها الورديتين مفسدة زينة عينيها.

اتسعت ابتسامتها وتسللت حتى عينيها و(تيمور) يقترب منها حاملاً باقة من زهور الأقحوان البرتقالي، أهداها إياها ليتوِّج طلتها كعروس باهية.

ظلا ينظران لبعضيهما متحادثين بلغة العيون وكأن كل كلمات الكون بهذه اللحظة باهتة باردة لا تليق بحالة الابتهاج والحميمية التي أصابتهما.

شاهدت صدره يعلو ويهبط وهو يبتسم أكثر قائلاً

- لقد جهزتُ خطاباً شاعرياً طويلاً لأفضي إليكِ بمكنون فؤادي ولكن طلتك بالثوب الأبيض وإدراكي المفاجئ لأنك حقاً صرتِ زوجتي جعلوا الكلمات تتبخر من عقلي وتذوب على طرف لساني اقترب أكثر وأحاط خصرها بيديه وأكمل

هامساً: لذا سأحاول أن أعبر لكِ عن حبي وامتناني للقدر الذي وحد دربينا بلغة أخرى تخيلث ممارستها معكِ كثيراً وأظنني اليوم قد استحققث تطبيقها على أرض الواقع عن جدارة.

مال عليها ولثم شفاهها بشغف فارتبكت ولكنها لم تعارضه بل انصهرت بين ضلوعه حتى قاطع حميميتهما فلاش الكاميرا المزعج الذي جعل (جيهان) تغفل بينما ضحك (تيمور) هامساً لها

- إنها (كاترين)، أمي.

أنزلت (كاترين) كاميراتها الضخمة ذات الفلاش الفظ عن وجهها لترى (جيهان) ملامحها الإنجليزية التي ميزها أنفها الحاد وشفاهها الرفيعة وأسنانها البارزة وبشرتها البيضاء وعيناها الزرقاء الواسعة التي لمعت بدموع الفرح اللاتي انهمرن وهى تعانق وحيدها ثم زوجته مرحبة بها بلكنة إنجليزية دافئة

- أهلاً بكِ في العائلة.

توترت (جيهان) وهى تقابل والدىّ (تيمور) للمرة الأولى وظنت أنهما سيعتبرانها لقيطة ساقطة انتشلت ابنهما الوحيد وتزوجته دون موافقة أهلها ولكن ترحيبهما الحار بها

وكلماتهما الطيبة لم تعكس سوى مدى سعادتهما لابنهما الذي كان محظوظاً بما يكفي ليجد حبه ويتمسك به ببسالة.

وبتلك السلاسة، تزوجا وتوالت مفاجآت (تيمور).

ساعدها على تحضير الأوراق اللازمة وسافرا لقضاء شهر العسل بلندن.

لم يقتصر الأمر على أخذ الصور الفورية عند معالم بريطانيا، بل كاد قلب (جيهان) أن يتوقف من الغبطة حين فاجأها بتذكرتين لحفل ليد زيبلين بحديقة فينسبيري العامة فظلت تقفز بمكانها وتصيح بحماسة لم تشعر بها يوماً.

حضرا الحفل وكادت (جيهان) أن تفقد عقلها حين رأت قدوتها الموسيقية على المسرح ثم تسللت مع (تيمور) إلى الكواليس وحصلت على توقيعهم.

فقدت النطق ولم تقدر حتى على التعبير عن مدى إلهامهم لها بعكس (تيمور) فصيح اللسان الذي ظل يحدث (جون بونهام) عن مهارات زوجته بقرع الدرامز ونسى حتى أن يذكر أنه يعزف أو يغني. لم يبالِ سوى بتعويضها عن الاهتمام الذي حُرمت منه وأن يخلق لها ذكريات لا تُنسى بإنجلترا وفرنسا وإيطاليا حتى عادا للقاهرة.

عاشا قصة حب جامحة لم تشوبها أى معكرات.

تنقلا بين المدن الساحيلية صيفاً للعزف على الشواطئ، وعزفا بالأقصر وأسوان بأجازة منتصف العام، وباقي أيام السنة تفرغا للعزف في القاهرة.

قضيا الليل يعزفان بديسكو الكينج حتى الفجر ثم يتجولان بالطرقات والشوارع وصولاً لكوبري الجلاء لمشاهدة بزوغ قرن الشمس وإشراقتها وهى تستيقظ من مضجعها على صفحة النيل الرقراق وهما يتبادلان الضحك والهمسات حتى يستقر نجم الصباح فيمران على عربة الفول ليبتاعا الفطور الذي يلتهمون نصف ما به من فلافل ساخنة بالطريق إلى شقتهما من حلاوة طعمها الطازج.

يفطران على طاولتهما متجاذبين أطراف الحديث على صوت سكان العمارة نازلين لأعمالهم وتوصيل أطفالهم للمدرسة بالبكيرة، وكان أولهم (ياسر) و(ناهد) الذي رزقهما الله بـ(مجدي) الصغير.

اعتاد (ياسر) أن يطرق بابهما كل صباح قبل الرحيل لمكتب المحاسبة الذي يعمل به وقبل أن يوصل (ناهد) التي لم تعد تذوق النوم بسبب مناوباتها المتغيرة بمشفى النساء والولادة الخاص بوالد (جيهان) وكذلك ساعات نوم رضيعها المتذبذبة.

على الرغم من أن ساعات نوم (جيهان) و(تيمور) تعاكس باقي البشر وأن حين ينشط ساكني الشارع يكون (تيمور) في ذروة نعاسه وتشوقه لملاقاة الفراش، إلا أنه يجبر نفسه على البقاء مستيقظاً والتدخين بالشرفة كل صباح متابعاً خروج آخر طفل من البناية ليذهب مع أبيه إلى المدرسة.

صارت عادة تشعره بجانب برئ من الكون لا يأنسه بعمله بالديسكو الذي تطل عليه نافذته، وبكل مرة يسمع فيها (تيمور) بكاء الرضع أو ضحكات الأطفال وهم يسرعون على السلالم للحاق بالأتوبيس، يتساءل متى سيكون أباً؟

أنهى سيجارته وأغلق الشرفة ثم خلع قميصه وهيأ الغرفة كي ينام بينما انشغلت (جيهان) بغسل الصحون في المطبخ.

حاول أن يغفل ولكن ألم رأسه كان غاشماً من حفل الأمس، فقرر أن يبحث عن مسكنات الصداع التي ابتاعها منذ فترة حتى نسى مكانها.

سأل (جيهان) بصوت عالٍ وصل للمطبخ

- (جيهان)، ألم تري مسكن الصداع؟

- كلا.

ظل يبحث بالأدراج ثم تذكر أنه أخذه معه للديسكو بمرة

وتركه بجيبه، ففتش بين ملابسه لم يجد شيئاً فظن أنه من المحتمل أن يكون قد طلب من (جيهان) أن تحمله معها، فبدأ يفتش بملابسها بالخزانة فلم يعثر على ما قد يسكن صداعه ولكنه وجد ما زاده حدة حتى شعر أن رأسه سيُشق إلى نصفين.

***

انعكس ضوء الصباح المنبثق من نافذة المطبخ على وجه (جيهان) المنشغلة برص الأطباق حتى دخل (تيمور) فسألته قبل أن تلتفت إليه

- هل وجدت مُسَكِن الصداع؟

هز رأسه نفياً فنظرت له بقلق حين استشعرت صمته

- ماذا بك يا (تيمي)؟

- لا شيء، كنت أراقب الأطفال وأتسائل لِمَ لم ننجب بعد؟

- عزيزي، لم يمر على زواجنا سوى عامين.

- ليس هذا بالمدة القصيرة خاصة وأننا لا نستخدم أية موانع للحمل.. انظري لـ(ناهد) و(ياسر)، لقد تزوجا قبلنا بيوم واحد وأنجبا.

ابتسمت وهى تجفف يديها

- علّ الله لم يقدر لنا الإنجاب بعد تركت المنشفة وأردفت: سأنزل لأحضر لك مسكناً من الصيدلية كي تقوى على النوم بسلام.

همت أن تتركه فأمسك رسغها ليستوقفها وأراها ما وجده مخبئاً بخزانتها

- لِمَ تتناولين حبوب منع الحمل؟

بلعت ريقها بصعوبة وارتبكت ولكنها قررت أن تقلب السحر على الساحر.

- كيف لك أن تفتش بثيابي؟

- هذه ليست الأجابة على سؤالي.

- حسناً، إليك الأجابة. هذا جسدي ولي مطلق الحرية أن أتناول ما أريد، أنا لا أسألك لِمَ تتناول طوابعك المهلوسة تلك.

ألقت تلك الجملة الاستفزازية ثم خرجت من المطبخ فتبعها (تيمور) بالطرقة وهو يضحك ساخراً ثم صفق صقفة عصبية متهكمة

- أحسنتِ، رد ممتاز.. أعجبتني فكرة إيمان المرء بحرية شريك حياته في التصرف بجسده. لو كنتِ حقاً مؤيدة لهذه النظرية، إذاً، لو قررتُ أن أضاجع تلك النادلة المثيرة التي

تغازلني كل ليلة بالديسكو، فليس من حقك أن تعترضي، أليس كذلك؟.

استشاطت غضباً وصرخت به كالرعد

- أقسم لك، إن فكرت حتى أن تبادلها النظر لحشوت بندقيتي بالرصاص الحي وقتلتكما.

أجابها ببرود مستفز

- لِمَ يا صغيرتي؟ ألم تقولي أن لكل منا مطلق حرية التصرف بجسده؟

قفز غضبها لذروته ففقدت السيطرة على نفسها وقامت بركل الطاولة التي تتوسط الصالة فسقطت المزهرية الخزفية التي تعلوها وتكسرت وهي تصيح بوجهه

- أنا أحذرك يا (تيمور)، إياك واختبار غيرتي.

كتم (تيمور) فمه بيده محاولاً ألا يفقد السيطرة على لسانه وأن يلتزم بدور الناضج بهذا الزواج وقرر أنه عوضاً عن الانفجار بوجهها سيعلق على فعلتها تلك بغضب مكتوم

- هذه المزهرية التي هشمتها بهمجيتك، عائلتي تتناقلها عبر الأجيال منذ العهد الملكي زفر في محاولة للترويح عن ضيقه: ألا تستطعين النقاش بطريقة متحضرة؟

- كلا، فأنا البربرية وأنت الراقي ذو التعليم الأوروبي.

- ثورتك العارمة تلك لن تشوش على الموضوع أو تحيدني عن سؤالي يا (جيهان).. لِمَ لا تودين الإنجاب؟

- لإني لم أنهِ تعليمي الجامعي بعد.

- ليس بمبرر، (ناهد) كانت تخوض امتحاناتها وهى حامل بأشهرها الأخيرة.

- إن كنت معجباً بقوة (ناهد) إلى هذا الحد، لِمَ لم تتزوجها بدلاً عني؟

وضع يده على رأسه وكأنه يمنع عقله من الانفجار

- يا إلهي، كُفي عن استفزازي أخذ نفساً عميقاً أخرجه ببطء محاولاً أن يخاطبها بهدوء: لا تتحججي بدراستك فأنتِ لا تبالين بها على أية حال.

- حسناً، إليك السبب.. الأطفال بحاجة لمصاريف ودخل ثابت ونحن وضعنا المادي مزرٍ وغير آمن.

- ترهات، وضعنا المالي جيد.

- هذا ما توهم به نفسك.

أجابها بتحدٍ وغيظ

- حقاً؟ ما الذي ينقصك؟ أخبريني وسأشتريه لكِ على الفور.

- طبعاً، ستشتريه لي بمصروف أبيك الذي يرسله إلينا شهرياً بانتظام.

أغضبته كلماتها المقللة من كبريائه ولكنه أصر أن يتمسك بخيط الرزانة وأن يتشبث بصبره الذي بدأ يتآكل ويذوب، إلى أن يضعها بخانة اليك

- حسناً، إن كان هذا ما يقلق عقلك الكبير ويجعلك تظنيني غير مهيأ للأبوة فإليك الأمر، إذا تخليث عن شغفي وتركث الموسيقى ورفضث أموال أبي ووجدثُ وظيفة ككميائي بمعمل السموم المصرية وأصبح لنا دخل ثابت ووافي.. أحينها ستنجبين لي طفلاً؟

توترت حين وضعها بين شقى الرُحى فصاحت به

- أنت تتصرف بصبيانية.

- كفاك إسقاطاً فالتصرف بصبيانية هو ماركتك المسجلة.

قررت أن تنهي النقاش فهربت لغرفتهما.

تبعها حيث وقفت عند الخزانة لتخلع ثوب نومها وتخرج سروالاً وسترة.

- إلى أين؟

- دعني وشأني.

- كفاكِ هرباً من مشاكلك.

انفجرت بوجهه صارخة

- وما الذي تعرفه أنت عن مواجهة المشاكل؟ أنت (تيمي) الفتى المدلل الذي يتسابق والداه على كسب رضاه كى يخرسا شعورهما بالذنب لطلاقهما وتشتيته بين بيتين وأنت تعرف ذلك جيداً وتستغل تلك الحرب النفسية في اعتمادك عليهما بكل شئ.

نظر لها (تيمور) بمرارة وعلق بنبرة تنطق بخيبة الأمل

- لم أتخيل أنك ستدرسين تاريخي وتحفظين عيوبي الذي استأمنتك عليها لتستخدميها ضدي بأول جدال بيننا.

أشعرتها كلماته بالخزي فصمتت حتى لا تزيد الطين بلة بينما أردف هو

- إن كنتِ حقاً ترينني فتى اعتمادياً ومدللاً، لِمَ قبلت بالزواج من رجل مثلي غير جدير بشخصيتك المستقلة الفتاكة؟

- أنا لم أقل أنك...

قاطعها غاضباً ساخراً منها بنبرة مستفزة

- لِمَ قبلت عظمتك بالزواج من الفتى (تيمي) الذي يعيش على مصروف أبيه؟

- لإني أحبك، والحب هو قبول عيوبك قبل محاسنك.

- ظننتُ أن الحب هو ألا ترى بشريكك أية عيوب.

- يبدو أن ترجمتينا للحب مختلفة.

أطرقت للأرض ثم شعرت بوطأة التوتر الذي يتمدد بالغرفة حتى غطاهما لذا، همت أن تضع ملابسها لتهرب ولكنه منعها جاذباً ثياب خروجها بعنف

- لن ترحلي!

ألقى بثيابها بعيداً حتى لا تطالها فزاد عنادها وصاحت به عارية

- إذا سأخرج للشارع هكذا.

كادت المستفزة أن تخرج من الغرفة بملابسها الداخلية ولكنه جذبها بقوة وأوصد باب الحجرة بالمفتاح وألقى به من النافذة بلا تفكير وهو يصيح بغضب لم تستشعره منه من قبل

- حسناً، لقد حاولت أن أتمسك بما تبقى من عقلانيتي ونضجي ولكنك قادرة على دفع بوذا لانتشال مطرقة لتكسير رأسك عديم الحكمة هذا. هذا النقاش سيُحل وستعطيني إجابة الآن بأية طريقة.

جذب مصباح طاولة الفراش فانفصل عن مقبضه الكهربائي وألقاه بغل صوب الحائط فتهشمت قاعدته وهوت أرضاً.

التفت إليها مردفاً بالصياح الغاضب ذاته

- فلنتبع طريقتك الغوغائية ونحطم الأشياء كالهمج ونتبادل الصياح والسباب والإهانات كالبهائم.. لكِ ما تريدين يا حلوة ولكننا لن نغادر تلك الغرفة حتى أفهم لِمَ ترفض المرأة التي أحبها بصدق ووفاء أن تجعلني أباً لأبناءها.

شاهدت صدره يعلو ويهبط بعد أن صاح بوجهها كالوحش الكاسر برهبة، فهي لم تتوقع يوماً أن مقولة اتقي شر الحليم إذا غضب قد تصف هذه اللحظة بتلك الدقة.

حاولت أن تجيبه بهدوء حتى لا تثير غضبه ثانية فأتت كلماتها مهتزة بينما تجمعت الدموع بعينيها

- الأمر ليس هكذا.. أنت لا تفهم.

- لست بمشعوذ لأفهم ما تتعمدين إخفاءه عني.

هربت الدموع من عينيها وهى تتكلم بنبرة مهزوزة

- أتعمد إخفاءه عنك لأني أرتعب من مجرد التفكير في إمكانية خسارتك.

جلست على الفراش وولت ظهرها له وبدأت تبكي.

- ألا تظنين أن عدم رغبتك في الإنجاب مني وتناولك لتلك الحبوب اللعينة حتى دون أن تناقشيني في الأمر، ليس بسبب كافٍ لخسارتي؟

- صدقني، ما أخفيه عنك لهو أبشع من عدم إنجابنا.

- لم أعد أفهم معتقداتك الملتوية يا (جيهان)، ولكني أفضل أن تبصقي بوجهي تلك الحقيقة التي تنعتينها بالشنعاء على أن تزيني زواجنا بكذبة بديعة الحسن.

- حتى وإن كانت الحقيقة أنني كدتُ أزهق روحاً؟

نظر لها (تيمور) مرتبكاً

- عمَ تتحدثين؟

- أتريد الحقيقة مهما كانت بشاعتها؟ حسناً طلبك مجاب. وجهي هذا الذي تنعته بالملائكي يختبأ أسفله وجه قاتلة انفجرت باكية ثم صرخت: أمازلت تود معرفة تفاصيل الحقيقة؟

دفست وجهها بين كفيها وأخذت تهتز باكية بينما ظل واقفاً ينظر لها متخبطاً كالوطواط الأعمى.

حاول أن يبلع ربكته، وتمسك بدور الزوج الحكيم، فيكفي أحمق واحد أسفل ذاك السقف.

جلس بجوارها على الفراش وحاول أن يهدأ بكاءها كي تفك له شفرة القنبلة التي ألقتها بوجهه منذ لحظات.

خلق نبرة مطمئنة كي يشجعها على الحديث بلا خوف

- ألا تودين أن توضحي لي الأمر؟ عن أى قتل تتحدثين يا صغيرتي؟

رفعت وجهها عن كفيها ولكنها ظلت تنظر للأرض وهى تمسح دموعها وترجع شعرها الأشقر خلف أذنها حتى تروي له

- حين ماتت أمي، أصابتني حالة من الغضب الجارف.. لم أتخيل أنها دفعت حياتها ثمناً لميلاد ذاك الكائن الباكي المزعج ذي الرائحة الكريهة.. لم أكن أحب الأطفال بطبعي ولكني لم أتخيل أن هذا الطفل سيسلبني أمي، الشخص الوحيد الذي تقبلني كما أنا وأحبني بلا تعديل.. حين زف لي أبي نبأ وفاتها، وضع أخي (نبيل) بين يدي وأخبرني: من

اليوم، ستصيرين أنتِ أمه وستعوضينه عن وفاة والدتك.. كنتُ مصدومة وغاضبة وناقمة على قدري ولا أعرف كيف..

لم تستطع أن تكمل، وانفجرت باكية مرتعشة فاقترب أكثر وأحاط كتفيها بذراعه وربت على يدها لتهدأ فأردفت متفوهة بكلمات متقطعة

- واتتني نوبة غضب حين سمعته يبكي.. صوته أثار جنوني وضاعف غضبي على فراق أمي ففقدتُ السيطرة ولم أشعر بنفسي إلا وأنا أضع يدي على فمه لأكتم بكاءه.. لو لم يدخل أبي وينتشل (نبيل) من بين يدي، لاختنق أخي.

اهتزت بقوة وهى تبكي

- نعتني أبي بالقاتلة وطردني من البيت حتى يحمي (نبيل) مني. لا لوم عليه، فأنا لا أعلم حتى هذه اللحظة كيف أقبلتُ على جريمة شنعاء كتلك.. كيف تركتُ الشيطان يهيأ لي قتل شقيقي.

- عزيزتي، لا تلومي نفسك..

قاطعته بضعف

- إذاً من ألوم على جريمتي؟ أخي وليد الأيام؟بكت واهنة: أتخالني لا أود أن أنجب لك طفلاً أرى فيه ملامحك وطباعك؟ أتخالني لا أتمنى أن أصير أماً لأبنائك؟ أريد أن

أهبك كل ما تتمناه ولكني أخاف نفسي. أخاف أن يكون أبي محقاً وأنني حقاً سفاحة ذات نزعة إجرامية لا تُأتمن على الأطفال.

- أي ترهات تلك.. لقد كنتِ صغيرة ووحيدة ومفجوعة لوفاة أمك.. كيف سمحتِ له أن يثقل كاهلك بنظرته الجاحدة لكِ.. أنتِ تقسين على ذاتك لأنك جعلتيه المرآة التي ترين نفسك من خلالها كل هذه السنوات.

- ماذا تعني؟

- أعني إن كانت هذه حجتك الوحيدة فأنا كافر بها، بل وكلي ثقة إنك ستكونين أماً عطوفة.

- وماذا إذا كان أبي محقاً؟ ماذا إذا فقدت السيطرة على نفسي في لحظة ضعف وآذيث ابني؟

- لن يحدث، لأنك نضجتِ ولأني لن أسمح للظروف أن تجعلك تمرين بهذا الأسى والحزن ثانية ولن أقلد أباكِ وألقى لكِ بطفل وأحملك مسئوليته بمفردك. سأشاركك كل لحظة حتى وإن تطلب الأمر أن نتشارك مدة حمله ورضاعته.

ضحكث على الرغم من الدموع المنسابة من عينيها فابتسم لها حين أشرقت شمسها.

- كيف لك أن تؤمن بي بعدما قصصته عليك؟ ألا تخافني؟

- لقد اخترتك بماضيك وحاضرك ومستقبلك وعيوبك ومميزاتك دفعة واحدة بلا تجزئة. لست بجبان يبحث عن الكمال المستحيل بلوغه بشريك حياته. أنا أفهم نفوس البشر وتعقد مشاكلهم والتشوهات التي يورثها لهم آباءهم وانعكاسها على نظرتهم لأنفسهم. لعلي أحمق يبالغ في تفاؤله ولكني سأظل أرى الضوء الكامن بالكون رغم أنف ذاك الظلام الدامس الذي يكتنف العالم.

تنهد وهو يقترب من (جيهان) أكثر حتى التصق بها.

- والآن، كيف لي أن أؤمن بالإنسانية وأتفاءل بالحياة دون أن أؤمن بأن حبي لكِ قادرٌ على إصلاح كل ما أفسدته الدنيا بداخلك، يا صغيرتي؟

# (٦)

# جيتار

***6 نوفمبر، 1976***

سطعت شمس السادس من نوفمبر على (تيمور) وهو يحمل صغيره (علي) مباشرة بعد خروجه من رحم (جيهان) لتطغى عليه مشاعر الأبوة وإذ به يبكي فرحاً على تلك النعمة التي وهبه الله إياها.

شعر أن نظام الكون تغير حين نظر بوجه ولده للمرة الأولى وفطن سبب وجوده بالحياة وعرف نوعاً جديداً من الحب أيقظ به غريزة كان يجهل ضراوتها لتكون المعجزة أن يصهر الله روحه ويربط قلبه بكائن ضئيل مستعد أن يحرك الجبال من أجله ويخلق عنده حدساً يجعله يشعر بصغيره قبل أن يبكي فيترجم لغته بشكل غرائزي.

لم يكن يمانع أن يستيقظ كل ساعتين على بكاء (علي) ليغير له حفاضته ويغني له ويتمايل به على مهل وهو يرضعه من زجاجته حتى يغط في النوم ويعيده إلى مهده.

ظل أباً وزوجاً مثالياً حتى العاشر من نوفمبر حين انتهت الأجازة التي أخذها من الديسكو للعناية بأسرته.

وضع سترته ورش عطره بينما بقت (جيهان) بالفراش تراقبه و(علي) نائماً بجوارها.

- لِمَ لا تمد أجازتك؟

- سأفعل ولكن الليلة عيد ميلاد (ياسين راغب). لقد حجز الديسكو كله واختار فرقتنا للعزف جلس على الفراش بجوارها لربط حذاءه: كنت أودك أن تشاركيني المسرح ولكن لراحتك الأولوية.

- منذ متى وأنت تعير رجال الأعمال اهتماماً؟

- كل أفراد عائلة (راغب) سيحضرون الليلة وعلى رأسهم عمه وأنتِ تعلمين أنه من أهم منتجي الكاسيت.. قد تكون الليلة انطلاقتنا.

- تلك العائلة مشبوهة والجميع يعرف متاجرتهم بالسلاح.

- وما دخلي! أنا مهتم بالشق الفني لعائلتهم فحسب.

أمسكت (جيهان) يدي (تيمور) وتجلى الإرهاق بعينيها التي أحاطتهما هالاتان سوداتان

- (تيمي)، لا تتركني.

أصابه القلق فأحاط وجهها بكفه الدافئة

- ماذا بكِ يا صغيرتي؟

- يساورني شعور غريب تجاه الليلة. لا ترحل.

- أود أن أظل معكما ولكننا بحاجة لهذا الحفل لنوفر حياة أفضل لصغيرنا داعب ابنه ثم أردف: سأجعل (ناهد) تجالسك، وسأنهي فقرتي وأعود على الفور.

- لستُ بحاجة لجليسة.

- عزيزتي اهدأي، أنا بالشارع المقابل لكِ قبلها ثم قبل صغيره: أعدك أني لن أتأخر.

خرج وتركها بالفراش تحملق بالسقف بحزن ثم بدأت تبكي بشكل لا إرادي فور أن سمعت الباب يُغلق.

لم تكن تلك المرة الأولى التي تنهمر فيها دموعها بهذا الشكل الهيستيري، فمنذ أن وضعت مولودها وهى تجد نفسها تبكي بلا مبرر شاعرة بضيق غير مفسر يجعلها تفقد شهيتها للحياة كلها.

بكى صغيرها فزادت وطأة حزنها الذي يتغذى على صوت بكاءه، فسحبت الوسادة ووضعتها على أذنها كي تحجب أنينه عن أذنيها ولكن بلا فائدة.

انسلت من أسفل الوسائد وتركته على الفراش يبكي وحيداً

ثم أغلقت باب الغرفة وخرجت للصالة لتبكي بدورها في صمت حتى طرق باب شقتها ففتحت لتجدها (ناهد).

كانت باسمة الثغر، هادئة كعادتها ولكن فور أن رأتها تبكي ارتبكت

- عزيزتي، ماذا بكِ؟

ألقت (جيهان) بنفسها بين ذراعي صديقتها وهى تنشج

- أنا متعبة.

***

جلست (جيهان) بالصالة تدخن سجائرها بأصابع مرتعشة وأعين باكية، بينما أعادت (ناهد) (علي) لفراشه بعد أن غيرت له حفاضته وهزته حتى نام.

جلست بجوار (جيهان) على الأريكة وهى تتأمل عظام وجهها التي نتأت بسبب الوزن الذي خسرته من قلة الطعام.

- النيكوتين سيزيد حالتك سوءاً.

نفثت (جيهان) دخانها ثم سألت (ناهد)

- أكنتِ تصابين بالأرق والضيق والاكتئاب المستمر بعدما وضعتي (مجدي)؟

- نعم، باستمرار.

- وهل كان بكاؤه يدفعك للجنون ويجعلك تتمنين الموت أو الإصابة بالطرش؟

انقبضت ملامحها ولم تجد إجابة ولكن (جيهان) أردفت بنبرة مرتعشة

- نظرتك اخترقتني، يا فتاة.. كلا، أنا لن أخنق ابني كما حاولت خنق أخي.

- لم أشك بذلك ولو لحظة واحدة.

- لا أعلم ما خطبي بكت بعنف: اللعنة! أنا لا أقوى على التوقف عن البكاء.. كل ليلة آخذ وسادتي وأنسل للحمام وأوصد الباب على نفسي لأدفس وجهي بالوسادة حتى ينكتم صوت بكائي ولا يلاحظه (تيمور).

- حبيبتي، هوني عليكِ، أنتِ مصابة باكتئاب ما بعد الولادة فحسب.. يجب أن تناقشي الأمر مع (تيمور)، فأنتِ بحاجة إلى الرعاية.

دفست سيجارتها بالمرمدة بأصابع مرتعشة

- كلا، إذا استشعر أى اضطراب من ناحيتي، سيظن أنني قد أقدم على إيذاء ابنه كما صار مع شقيقي.

- هذا مستحيل، (تيمور)..

- (تيمور) فعل ما يكفي لأجلي، والآن سأرهقه بالمزيد من اضطراباتي اللعينة بكت بوهن: أنا أم وزوجة بشعة.. لقد ألقيتُ بمسئولية ابني كلها على عاتق (تيمور) بمفرده وهو لم يشكُ، أنا لم أغير لابني حفاضته ولو مرة واحدة منذ الولادة، لم أضعه على صدري وأرضعه بنفسي، لقد تركت (تيمور) يفعل كل شئ وهو..

- وهو سعيد بذلك، لا تفكري بتلك الطريقة.. اكتئاب ما بعد الولادة أمر شائع وأزمة يسهل تخطيها.. أنتِ أقوى من حالة الاكتئاب المسيطرة عليكِ.

- كلا، أنا ضعيفة ووحيدة وخائفة ولا أستطيع أن أتوقف عن البكاء والليلة بالتحديد لدي شعور تشاؤمي وطئ وكأن شيئاً لعيناً سيصيبنا.

***

عزف (تيمور) الأغنية الرابعة مع فرقته وقد حضر كل أفراد (آل راغب) فيما عدا عمه المنتج.

قلق من ألا يأتي، ولكنه كان متيقناً أن الليلة ستُغير مستقبله.. وقد كان حدسه صحيحاً.

دخل العم البدين المتحلي بالذهب متأخراً فتحمس (تيمور) وانتعش وظل يتابعه وهو يسلم على ابن أخيه ويعطيه هدية عيد ميلاده التي كانت شيكاً لم يلمح (تيمور) عدد أصفاره، ثم حيا شقيقه وزوجته وانضم لطاولتهم المقابلة للمسرح.

غمز (تيمور) باقي أعضاء فرقته ففهموا مقصده، وغيروا اللحن إلى الأغنية التي أجلوها لإبهاره.

ظل (تيمور) يتابع العم على المائدة الرئيسية لـ(آل راغب) ولو كان يعلم ما هو على وشك الحدوث لما تعلق نظره بتلك الطاولة ولما حضر الحفل من الأصل.

دقت الساعة الثانية فجراً. ضربت الأضواء بعين (تيمور). أبعد نظره عن المائدة ونظر لأعلى وهو يغني هائماً. لمح خمسة رجال ضخام البنية يقتحمون البلكون الأسطواني العلوي للديسكو. تفرقوا بالزوايا. أشهروا رشاشاتهم الآلية. بلا مقدمات، ضغط كلٌ منهم على زناده وأمطر السقف رصاصاً يخترق رؤوس الجالسين بالأسفل غدراً.

في لحظة طالت كالدهر، رأى (تيمور) (آل راغب) يُصَفُّون واحداً تلو الآخر وأولهم الجالسين على الطاولة الرئيسية المقابلة له فتناثرت دماءهم المتفجرة من دماغهم على وجهه فارتجف.

كان اغتيالا مباغتاً، فلم تتسنّ لهم حتى فرصة إشهار أسلحتهم لتبادل إطلاق النيران.

تصاعد صياح الرجال وصريخ النساء وتوقفت الموسيقى وتدافع (آل راغب) صوب الباب ولكنه كان موصداً فلم ينج أحد من الموت وصفى المسلحون كل مَن بالصالة بلا هوادة ففاحت رائحة الدماء المتدفقة كالنهر على ساحة الرقص.

تخشبت أطراف (تيمور) وعجز عن التنفس وكأن قلبه توقف عن النبض فلم يجد ما يكفي من القوة ليحرك طرفاً، ولا ما يكفي من الأوكسجين ليأخذ نفساً.

لم يستطع أن يستوعب ما يدور، فكل شئ حدث بسرعة مباغتة. كان الموت أسرع من البرق ووقع الطلقات أفجع من الرعد.

شله هول الموت الذي حوّل التصفيق لأزيز رصاص والتهليل لصريخ استنجاد وظل متجمداً بمكانه إلى أن قرر أحد القناصة أن يحول طلقاته صوب المسرح لتكن طيراً أبابيل ترميهم برصاص اقتنص عازف الأورغ فالباص فالبديل الذي أتى ليعزف الدرامز مكان (جيهان).

حين وجد أعضاء فرقته يتساقطون من حوله كأوراق الخريف، باغته تدفق الأدرينالين واندفع بدمائه صارخاً فيه

لينجو بنفسه.

حمل جيتاره وركض بأقصى سرعة نازلاً عن المسرح.

انزلق في بركة الدماء الدبقة فسقط على وجهه ليقابل تلك النادلة التي اعتادت أن تغازله فتشاجرها (جيهان) كل ليلة.

كانت ملقاة أرضاً، تلفظ أنفاسها الأخيرة بعد أن اخترقت رقبتها رصاصة وتفجرت الدماء من فمها ثم رأى (تيمور) الحياة تتخلى عنها والبريق يفارق عينيها وزبد الموت يسيل من بين شفتيها.

قرر ألا يموت الليلة.

انتفض فنهض أسفل أزيز الرصاص وصريخ الاستنجاد وجرى على سجاد الدماء.

ركض صوب باب الموظفين الخلفي فدفعه بكل قوته ليجد أن هؤلاء القتلة سهوا عن وصده.

أغلق الباب الثقيل نفسه فور أن خرج (تيمور) ليقابله الصمت.

لم يسمع سوى صوت أنفاسه اللاهثة، وضربات قلبه الصارخة ووقع أقدامه الهاربة على الأسفلت.

كل هؤلاء المقيمين بالبنايات المجاورة كانوا في غفلة

عن المجزرة الدائرة خلف حوائط الديسكو السميكة العازلة للصوت.

لم يقاطع ذاك الصمت سوى بكاء طفل مدوي بعنف ينبعث من إحدى الشرفات ليغطي الشارع كله.

ظل يركض بالشوارع والدماء تملأ وجهه وملابسه وجيتاره.

هرب دون أن ينظر خلفه ولكن سيطر عليه هاجس أن هناك من يتبعه.

تخطى كل الشوارع الخلفية الضيقة التي يدوي بها بكاء ذاك الطفل الحاد حتى وصل للشارع الرئيسي الفاصل بين الديسكو وشقته.

استمر بالركض. بينه وبين عمارته بضعة خطوات. تثاقلت أنفاسه التي تعلو وتهبط بصدره. لاحقه الصوت الغاشم لبكاء الطفل. عبر الحارة الأولى من الطريق السريع. شعر أن هناك من يتبعه. نظر خلفه عابراً الحارة الثانية. لم يرى ملاحقه الذي توهم وجوده. صدح صوت فرامل وبوق. باغتته مصابيح سيارة مسرعة ثم رأى الدنيا مقلوبة رأساً على عقب.

ارتطم وجهه بالأسفلت ثم سيطر الصمت وعمّ الظلام وسكن كل شئ.

***

دماء غزيرة، أزيز رصاص، صرخات استنجاد، رائحة ثقيلة، بكاء طفل، وألم حاد.

انتفض (تيمور) بفراشه ولهث مستنجداً

- لا تقتلوني.

- عزيزي.

نظر حوله بأعين منتفخة ورأس مترنحة وألم يعتصر بدنه.

كان مستلقياً على ظهره في فراشه بالمشفى وذراعه ملفوفة بجبيرة ورأسه مربوطة بالشاش والكدمات تملأ بدنه وأمامه (ناهد) و(ياسر) و(جيهان) الجاثية على ركبتيها بجواره واضعة رأسها على كفه وهى تبكي شاكرة ربها

- لقد نجاك الله.

***

ظل بالمشفى بضعة أيام فَهِمَ فيهم أنه الناجي الوحيد من مجزرة اغتيال (آل راغب) التي نفذها أحد خصومه بسوق السلاح.

أخذت الشرطة أقواله، ولكنه لم يفدهم بالكثير، لم يتمكن

من تذكر وجوه القتلة.. كانت التفاصيل مبهمة يسودها الدماء وصريخ الضحايا الذين كلما تذكرهم تصارعت أنفاسه وأصابته حالة من الذعر فيتوقف عن الكلام ويطلب من الجميع أن يتركونه بمفرده.

سمح له الطبيب بالخروج بعدما استقرت حالته الجسدية فترك غرفته مع (جيهان) التي باتت الليالي بجواره على الكرسي حاملة رضيعها الهادئ.

بطريقهما للشقة، مرت سيارة الأجرة على الديسكو الذي مازال مغلقاً أثر الحادث وتهيأ لـ(تيمور) أن الدماء تتفجر بداخله كالسيول ساحقة الزجاج الأمامي للملهي حتى تنبثق من بابه الأمامي مفترشة الأسفلت.

اضطربت أنفاسه، فأبعد نظره ونزل من السيارة ليساعد (جيهان) على حمل الحقائب.

دخلا الشقة فأجلسته (جيهان) على السرير وفتحت له الشرفة لتدخل النسمات الرقيقة ملاطفة وجهه الذابل.

وضعت (علي) بجواره مبتسمة وهى تداعب شعره

- الليلة سأطعمك وليمة تقسم بروعتها.

لم يكن منصتاً لها، كان يتأمل جيتاره المحطم الملقى

بالزاوية خلف باب الشرفة فانتبهث

- لا تقلق بشأن الجيتار، سأشتري لك واحداً جديداً و..

- أود النوم.

- حسناً، أمنياتك أوامر يا سيد (تيمي).

جثت على ركبيتها لتخلع عنه حذاءه وأعانته على خلع سترته وقميصه كي ينام عارِ الصدر كما يفضل ثم غطته وأخذت (علي) وتركته.

حاول أن ينام ولكنه ظل يحملق بالجيتار المحطم ويافتة الديسكو التي انطفأت مصابيحها.

كاد يقسم أنه رأى الدماء تتقطر من بين أوتار جيتاره ويسمع الصريخ الحاد خارجاً من الديسكو ليخترق أذنيه ويعتصر وجدانه.

ابتلعته ذكرى تلك الليلة، أخفق قلبه وتمكن منه هاجس أن هناك من يمشى بالغرفة بنية أن يقتله لأنه الناجي والشاهد الوحيد على المجزرة.

أتى من الخارج بكاء (علي) حاداً مؤلماً.

تصارعت نبضات قلب (تيمور) وارتعشت أوصاله وتمكن منه شعوره بالخطر.

إن لم يركض الآن سيُقتل كباقي أعضاء فرقته.

انتفض من على الفراش بقوة آلمت ذراعه المكسور وخرج من الغرفة راكضاً.

- (تيمور)!.

نادته (جيهان) وهى تراقبه يفتح الباب ولكنه غاب عن واقعه.

نزل الشارع يركض عارياً حافياً فتبعته وظلت تناديه ولكنه لم يتوقف عن العدو والناس يشاهدونه في عجب فحاولت أن تلحقه بأنفاس ضعيفة متقطعة حتى وقفت أمامه وكلمته لاهثة

- (تيمور).. أنا هنا.

- سيقتلونني.

- كلا، أنت بأمان يا حبيبي عانقته هامسة: أنا معك.

- لا أريد أن أموت.

انهار باكياً فشعرت به يرتعش بين ذراعيها واستشعرت منه ما لم تألفه من قبل.. الخوف.

***

كتبت له (ناهد) بعض المهدئات كي يتمكن من النوم، فابتلع القرص ونام حتى اليوم التالي.

لم يستيقظ سوى على ضوء الظهيرة الباردة يطرق جفنيه وصوت موسيقى ليد زيبلين يملأ الخلفية ثم يد تباغته ضاغطة على صدره.

انتفض لا إرادياً ودفع صاحب اليد بعنف ثم نهض عن السرير ليتدارك الموقف.

سمعها تتأوه وهى متكورة على الأرض.

اقترب ليجد أن (جيهان) هى التي كانت توقظه فظنها عدواً.

- هذه أنا.. لقد كنتُ..

صاح بها آمراً

- إياك ومباغتتي مجدداَ.

خرج من الغرفة غاضباً واتجه للمرحاض صافعاً الباب خلفه.

كانت يداه ترتعشان وقلبه يخفق، فأبسط صوت أو حركة صارا يرعبانه ويشكلان خطراً عليه.

غسل وجهه ثم خرج ليجد (جيهان) واقفة عند الفراش تبكي وهى تضع جيتاراً برتقالياً جديداً ابتاعته له ليطابق ذاك الذي خرب بالمجزرة.

مسحت دموعها حين شعرت به يقف خلفها وهمت أن تخرج ولكنه همس

- لم أقصد الصياح بكِ.

- أعرف.. حبيبي، أنت بحاجة للمساعدة، (ناهد) تعرف طبيباً نفسياً و..

صاح بها

- لستُ مختلاً، أنا..

- ليس كل المترددين على العيادات النفسية بمختلين.

- أنا بحاجة للهدوء والراحة فحسب.

- قد يكتب لك الطبيب بعض العقاقير التي..

- التي ستزيد الطين بلة، أنا كيميائي وأعي ما أقوله.

- حسناً لِمَ لا نسافر قليلاً؟ أعتقد أن الوقت قد حان كي يعرف والداك ما حدث و..

- الآن تودين أن تعتمدي على والدي لحل مشاكلنا؟ أصرتُ

عاتقا عليك؟

- كلا البتة، أنا فقط..

شعرت بالعجز والخوف منه وعليه فتجمعت الدموع بعينيها وهى تترجاه منكسرة

- أود أن تتحسن حالتك أياً كان ثمن ذلك.

انفجر صائحاً

- اللعنة. جميعكم تضغطون علىّ وكأن التحسن أمر بيدي. أنتِ لم تكوني هناك ولم تري ما رأيته. الدماء كانت.. خفق قلبه حين تذكر وارتعش صوته وتقطعت كلماته: لقد غطى الدم كل شئ.. الرصاص اخترق الرووس كلها.. استنجد الجميع ولم يجدوا منقذاً.

بكت بشدة وهى تحيط وجهه بكفيها

- حبيبي، لقد نجوت.. أنت الآن بأمان.

- كلا.. سيأتون لقتلي، هم فقط ينتظرون أن تهدأ الأمور وينسى الجميع الأمر. عاجلاً أم آجلاً سينتشلون روحي تماماً كما فعلوا مع الباقية.

شعر بالوهن الشديد وتصارعت أنفاسه ثم أتى بكاء ابنه من الصالة ليسوء الوضع.

تذكر اللحظة التي خرج فيها من الباب الخلفي والدماء تملأ جسده وملابسه ثم الصمت الثقيل الذي لم يخترقه سوى بكاء الطفل الحاد القادم من إحدى الشرفات المجاورة لشارع الديسكو الخلفي ثم السيارة المسرعة التي أتت لترطمه على الأسفلت.

غطى أذنيه بيده ثم صاح بـ(جيهان)

- أيمكنك أن تقومي بدورك كأم وتخرسي ذاك الرضيع؟

خرجت من الغرفة سريعاً مصدومة من حدته وحملت (علي) ودخلت الغرفة الأخرى وأوصدت الباب عليهما بعيداً عن (تيمور).

***

ظل وحيداً بالغرفة حتى غطاه الليل بظلامه وبقت (جيهان) بالغرفة الأخرى حتى لا تزعجه ببكاء (علي).

بتلك الليلة، استلقى أسفل غيمة الدخان التي خلقتها سجائره وفشل في مباغتة الأرق واختلاس سويعات للنوم.

كاد الدخان أن يخنقه فخرج للشرفة لاستنشاق الهواء البارد وحاول أن يغض طرفه عن الديسكو ولكنه فشل.

أتت اللقطات سريعة غاشمة: عيني النادلة وهى تفارق

الحياة، وجوه أصدقاءه العازفين تملأها الدماء، الصريخ، الرصاص، الناس تتدافع عند الباب الخلفي، فرامل السيارة، صوت طرقعة عظام ذراعه تتحطم تحته وصدمة ارتطامه بالأسفلت.

تسابقت أنفاسه بينما تصارعت دقات قلبه وهى تلكم صدره ليسيطر عليه شعور قاتل بقلة الحيلة والوهن حتى ارتخت ركبتاه فسقط شاهقاً بصعوبة وكأنه على وشك الاختناق.

لم يتمنى بحياته أى شئ الآن سوى أن تتوقف نوبة ذعره.

حاول تنظيم أنفاسه فنهض ليبحث على ما يعرف أنه سيسكن مخاوفه.

بخطوات مترنحة وأيد مرتعشة، فتح درج الطاولة المجاورة لفراشه وقلب به حتى وجد مسرحية ماكبث.

قلب صفحاتها حتى عثر على هدفه.

طوابع السيلوسيبين التي حسنّ مفعولها وطوّر تأثيرها.

ألصق اثنين بلسانه وظل يمتصهما كي يُعجِّل مفعولهما.

كانت أكبر جرعة يأخذها منذ أن عرف ذاك المخدر.

أصابته القشعريرة حين شعر بحركة الكون تتباطأ. ارتعشت عيناه وأصابه الدوار ثم بدأ يتعرق وترتفع حرارته ولكن على

الأقل هدأت أنفاسه وارتخت أوصاله وانتظمت دقات قلبه.

ظل بالزاوية يراقب الغرفة التي بدت له أرضيتها وكأنها تموج.

اتضح كل شيء.

صوت دقات الساعة. تفاصيل ورق الحائط. النمل الذي يسير في خط منظم متجهاً لطبق التفاح المتروك على الكومود. انعكاس القمر على كوب الماء الموضوع على المنضدة.

اتضحت كل الأصوات ثم صمت كل شئ فجأة.

لم يأتيه أى صوت من الخارج ثم شعر بروحه تغادر جسده وتحلق صوب السقف وتشاهده من أعلى، بدى لها ضعيفاً مهزوماً فامتعضت وتمنعت عن مراقبته وعادت لجسده ثانية.

تحولت سخونة جسده لبرودة، فنهض بصعوبة شاعراً أن الأرض تهتز أسفل قدميه كأنه على سطح سفينة فترنح وتعثر بالكرسي ثم الطاولة ثم الأريكة حتى وصل للشرفة وكاد أن يغلقها ولكنه رأى ما استوقفه.

رأى السماء تمطر دماءاً دبقة على الديسكو فوقف يتابع

مشدوهاً.

رأى نفسه، يركض بالشارع بالملابس نفسها من ليلة الحادث وعلى ظهره جيتاره ووجهه مصبوغ بدماء الضحايا، ثم رأى أحد القتلة الخمس مفتولي العضلات ذوي البدلات السوداء يخرج من الديسكو ويتبعه بسلاحه الموجه صوب رأسه.

ارتعب (تيمور) وذهبت عنه حالة الخدر والخمول التي أعطاها له المخدر وأصابه الذعر.

حاول أن يحذر نفسه من ذاك العدو الذي يود قتله فصاح

- خلفك.. احذر.. سيقتلك.

انتبه طيف (تيمور) الذي يركض بالأسفل أن (تيمور) الحقيقي الواقف بالشرفة يكلمه، فرمقه بنظرة مرعبة وفجأة قفز بالهواء وبدأ يتسلق البناية وصولاً لشرفته كالعقرب السام.

زادت ربكة (تيمور) حين رأى صورته المتقطرة بالدماء تدنو منه وعلى وجهها نظرة مرعبة أكثر من نظرة القاتل الذي كان يلاحقه.

وصلت صورة (تيمور) التخيلية إلى شرفته.

وقف أمامه مبقعاً بالدماء والشر يطغو على عينيه وبلا

مقدمات، أخرج من جيبه مسدس وجهه صوب رأس (تيمور) الحقيقي.

- لا تقتلني!.

قالها باللحظة نفسها التي استشعر فيها يداً تباغته من الخلف.

استدار فوجد القاتل الذي كان يلاحقه بالشارع واقفاً خلفه ومعه رشاشه.

لن يهرب تلك المرة.. سيواجهه.

ركل صدر القاتل المسلح القصير فأسقطه ثم انقض عليه.

اعتلاه وأخذ يلكمه وهو يصيح

- لن أموت الليلة.

كل أصوات المجزرة باغتت مسامعه فوصله صريخ أنثى ثم بكاء طفل ولكنه لم يرخ قبضته أو يوقف لكماته.

استمر في ضرب القاتل ومقاومته حتى تخضبت براجمه بدماء المجرم الصارخ كالنساء.

سمع طرق باب الشقة ثم زجاج يتهشم ثم وقع أقدام وصياح يقترب من غرفته

- (تيمور)! توقف!.

خاف أن ينهض عن القاتل ليتفقد ما يدور بالخارج فيباغته ويطلق عليه الرصاص من الخلف، لذا ظل مكانه حتى رآهما.

دخلت (ناهد) و(ياسر) للغرفة وأشعلا الضوء.

قام (ياسر) بجذب (تيمور) بكل قوته وهو يصرخ به

- كفى، اتركها، ستقتلها.

ارتبك (تيمور) فزادت دقات قلبه وهو يرى التهيؤات تتلاشى من حوله تدريجياً.

اختفى شبيهه الممسك بالمسدس بالشرفة وجفت أمطار السماء الدموية وتوقف صوت الرصاص والصريخ الذي سمعه وتبين ملامح من اعتلاه وأبرحه ضرباً مميتاً.

أعين عسلية وشعر أشقر وملامح رقيقة تورمت من وحشية لكماته لها.

من هيأت له هلاوسه أنه قاتل مأجور ليس سوى (جيهان) زوجته وحبيبته التي امتلأ وجهها بالكدمات والدماء وهى تنظر له نظرات مرتعبة لن تمحى من خلده ما حي

# (٧)

# ميكروفون

تقطعت كلماته ويداه ترتعشان

- صُوِرت لي كأحد القتلة.. الطابع شوش إدراكي.. لم أقصد مهاجمتها بكي (تيمور): يا إلهي، كدتُ أن أقتلها و..

ربت (ياسر) على كتفه مهوناً عليه

- يجب أن تنتقلا من هذه الشقة فكلما رأيتَ تلك اليافتة من نافذتك ستعاودك الذكريات وتشتد حالة اضطراب ما بعد الصدمة التي أصابتك.

نظر ليديه المبقعة بدماء (جيهان)

- كيف وصلت لهذه الدرجة؟.. لقد آذيتُ صغيرتي.

- لقد نجوت من ساحة حرب يا رجل، من الطبيعي أن تتأثر حالتك النفسية، ولكن بداية التعافي هو أن تدرك أن الأمر قد ولى.

- كلا.. الشرطة لم تقبض على المجرمين بعد فكيف لي أن أجزم أنهم لن يلاحقونني ويقتحمون شقتي ليلاً ويتسللون لغرفتي ليمطرون رصاصهم علىّ أنا وأسرتي. سوف..

اضطربت أنفاسه ثانية: سوف يقتلوننا.

- (تيمور)، انظر إليّ.. لقد انتهى الأمر. أسرتك بحاجة إليك، أنت الآن زوج وأب فخذ نفساً عميقاً وأعد حساباتك وأصلح الوضع، فما حدث اليوم، لا يمكن أن يتكرر أبداً.

***

نزل (تيمور) لشقة (ناهد) حيث ضُمِدَت جراح (جيهان).

استغربت من سؤاله عنها، فمن المفترض أن (جيهان) عادت لشقتها منذ ساعتين ومعها (علي).

ارتبك (تيمور) ونزل باحثاً عنها بالمستشفيات والأقسام المحيطة ولكنه لم يجد لها أثراً.

نصحه (ياسر) أن يبقى بالمنزل منتظراً إياها، فعلها خرجت لاستنشاق الهواء كي تهدأ أعصابها من بشاعة ما صار.

ظل يدخن ويذرع الصالة ذهاباً وإياباً حتى سمع صوت المفتاح فالتفت ليجد (جيهان) تدخل حاملة رضيعهما ابن الثلاثين يوماً.

فُجِعَ حين رأى الكدمات التي افترشت ملامحها وعينها اليسرى التي انتفخت حتى أغلقت وشفتها التي شُقت إثر دبلته المعدنية.

ضغط رأسه بكفيه وكأن عقله سيفر من جمجمته بسبب الذنب الذي ينهشه حتى بكى

- يا إلهي، ما الذي اقترفته يداي؟

لم يستوعب أنه آذى من اتخذها وطناً وأهلاً وشريكة بتلك الطريقة

البشعة، فغطى وجهه بكفيه هارباً من الحقيقة التي لطمته وهو يقول.

- يجب أن ننفصل قالها بمرارة ولكن بصدق: تلك الليلة قتلت بداخلي جزءاً لن يُبعث من قبره.. لم أعد الرجل الذي استئمنتِه على نفسك.. لقد فقدتُ السيطرة على نفسي.

اقتربت منه وأنزلت كفيه عن وجهه برفق. رأى بملامحها قوة وبأس مريبين.

- احمل ابنك وأمعن النظر بملامحه.

أعطته صغيره فتأمل وجهه الوردي. لقد تغيرت ملامح الرضيع وقل وزنه وبدى مختلفاً عن آخر مرة حمله فيها بين يديه.

- ستقاوم مخاوفك وتستبدل ساقيك المهزوزتين بأخرتين ثابتتين من أجله.. لن تخذل صغيرك.

- ولكني خذلتك و..

- كلا مسحت له دموعه: لن أتركك حتى وإن صرت مسخاً عانقته وهى تهمس له بقوة: لقد اتبعتُ عقيدتك وصرتُ مؤمنة مثلك بأن حبي لك قادرٌ على إصلاح كل ما أفسدته الدنيا بداخلك.. وهذا إيمانٌ لن أفقده مهما توحشت ظروفك.

***

انتقلا من البناية التي شهدت زفافهما وبذرة حبهما وميلاد وحيدهما لفيلا منعزلة بالمعادي لا يجاورها شيء على مسافة كيلومترين.

قرر (تيمور) نقل ملكية الفيلا – التي كتبتها له جدته الإنجليزية قبل وفاتها – لـ(جيهان) ظاناً أن هذا قد يعطيها شعوراً بالأمان يعوضها عن نوبات الهلع العنيفة التي تباغته.

ولكن الأمان كان آخر ما تشعر به وهى تشاهده يحلق رأسه ويجمع شرائط واسطوانات الروك أند رول وآلات فرقتهما الموسيقية وصورهما على المسرح ليخزنها بحجرة صغيرة أوصدها ليسجن بها شغفه وروحه.

استبدل ثيابه المزركشة الصاخبة ببدلات رسمية قاتمة، ودراجته الهارلي البرتقالية بإحدى سيارات شركة النصر، وساعات عمله من الليل حتى الفجر بديسكو الكينج، للعمل

من الثامنة صباحاً حتى الثانية ظهراً بمعمل السموم المصري.

استبدل الجعة بالشاى وموسيقى الروك أند رول بالتخت الشرقي والسفر والترحال بحل الكلمات المتقاطعة وإكمال أبحاثه بقبو الفيلا الذي حوله لمعمل لإيجاد ترياق لأحد السموم ذات الرائحة السُكرية التي يعمل عليها حتى انصرمت حقبة السبعينات بموسيقاها وجموحها وأقبلت الثمانينات بأزياءها القبيحة وصيحاتها الدميمة الألوان والمنعدمة الذوق.

احتفل (علي) بعامه الرابع مع أبيه باحث السموم ووالدته ربة المنزل التي سلبتها الحياة توهجها وحولتها من ثائرة جامحة إلى زوجة تتضرع ليلاً كي لا يصاب زوجها بنوبة هلع إذا رأى مشهد لتبادل إطلاق النار بأحد الأفلام بغتة، أو سمع موسيقى الروك أند رول صدفة بالراديو الأوروبي أو وصل لأذنيه بكاء طفل بالشارع.

كانت الأيام ثقال، وحالة (تيمور) لم تتحسن على الرغم من استقرارها.

ينام بعين مفتوحة وينتفض بمكانه إذا أحس حركة مفاجئة ولا تنقطع عنه الكوابيس الملغمة بالدماء والصريخ.

كثيراً ما يسير بنومه هرباً من أحلامه حتى توقظه

(جيهان) بحنان وتعيده لفراشه برفق.

ينتابه يومياً إحساس خبيث بأن هناك من يراقبه من خلف سياج الحديقة منتظراً اللحظة المواتية للانقضاض عليه وقتله لأن قضية ديسكو الكينج ظلت ملفاً بارداً مقيداً ضد مجهول، وعليه، لم تسكن مخاوفه.

صحيحٌ أنه لم يعد مصدر للخطر، ولكن (جيهان) كانت تموت يومياً كلما لاحظت بريقه يخفت والخوف ينهشه مبتلعاً روحه المغامرة وسلامه الداخلي ونظرته الفلسفية المتفائلة للكون ولكنها لم تتوقف عن حبه، بل تلك الفاجعة حولتها من (جيهان) حبيبته الصغيرة المدللة، إلى أمه التي يجنح إليها ويبكي على صدرها كلما انتابه الهلع.

إنها الحقيقة، لقد فقدت حياتها وهويتها للمرة الثانية، وانطفأ شبابها الثائر مبكراً، إلا أنها كانت تصبر نفسها كلما ذهب (تيمور) للعمل بأن تدخل غرفة الروك أند رول كى تقرع الدرامز سراً وتسمع أغاني ليد زيبلين خفية وتتأمل صورهما وتسرح مع ذكرايتهما حتى تذكر نفسها بعازف الجيتار المثير وسيد الميكروفون الجذاب الذي أثار بداخلها أنوثة وعاطفة لولاه لما عرفتهما.

# (٨)

# تينور

***يونيو، 2019***

خرج (رأفت) و(زينب) من منزل السيدة (ناهد) بعد أن شكراها على ثرثرتها وسردها لتلك القصة الرومانسية المفصلة التي لم تفيدهما بشئ ثم ركبا سيارته عودة لمقهاهما الذين يتخذونه مقراً سريعاً لجلسات تحضير الأرواح التي فتحت على البشرية أبواباً من الجحيم.

- مسكينة (جيهان)، تحملت حالة زوجها النفسية المعقدة وحياتها التي صارت رمادية خالية من أية مشاعر أو شغف، فقط ليشكرها على ذلك برصاصتين أنهيا حياتها.

- ألا ترين أنه من الغريب أن تظل متعلقة به وترفض أن ترحل روحها عن روحه حتى بعد أن قتلها بتلك البشاعة؟

- إلما ترمي؟

- لقد انتقلت روحاهما معاً وعلى الرغم من أنه قاتلها، مازالت تود أن تظل معه بعالمنا بل وتتشبث بالمكوث بدنيتنا. من خبرتي، فالأرواح لا تتعلق بعالمنا بعد الموت إلا لأنها تود أن ترسل رسالة لأحد الأحياء، وهى لا تعرف أحياءاً سوى

(ناهد) التي لا يبدو أنها مهتمة بها، أو لأن الروح تود أن تنتقم من قاتلها وهي ليست حالة (جيهان) لأنها مازالت تهيم غراماً بزوجها السفاح.

- ألم تذكر أن بعض الأرواح تهاب العودة للعالم الآخر خوفة من أن تحاسب على آثامها؟.

- قد ينطبق الأمر على (تيمور).. فمما فهمته أن طبيعته كانت صالحة وطيبة ولم يرتكب تلك الجرائم وهو بوعيه. هو تائه عن عالمه ولم يفهم حتى أن روحه انتقلت لعالمنا، الأحمق ظن أن كائنات فضائية اختطفته.

- أتفق معك، ولكني أعتقد أن الحل لتلك المعضلة بسيط ولكن ذكورتك تمنعك من أن تبصره.

زفر (رأفت) وعلق ساخراً

- إذاً فلتنطقي أنتِ به وتنيري عقلي، يا ناصرة النسوة.

- إذا كان (تيمور) يود المكوث بعالمنا هرباً من عاقبة جرائمه، فإن (جيهان) وكأية زوجة أصيلة ستبقى معه ولن تترك روحه وحيدة.

- واردٌ، ولكن أتعلمين ماذا يشغلني بصدق؟ إصرارها على أن (تيمور) لم يقتلها.. إن كانت واثقة بهذا الشكل، فعلها على

حق.

- وكيف ذلك؟ لقد قرأنا ملف الجريمة مفصلاً، كل الأدلة تشير، بل تؤكد على أن (تيمور) هو قاتلها.

- من الحمق أن نتبع المنطق لحل قضية عودة شبح يقتل الأطفال. الحل الوحيد هو أن نكذب كل معطيات تحقيقات الشرطة وما تناقلته الصحافة ولنبدأ من الصفر، فلكي نصل للحقيقة المطلقة، علينا أن نكفر بكل المسلمات.

***

تخلد (روحية) لفراشها كل ظهيرة لتنعم بقيلولة تمتد للمغرب وهى تتقلب بهدوء أسفل نافذتها المفتوحة إلى أن انتابتها قشعريرة لا تناسب حرارة اليوم.

أدركت أن هناك من يتحرك بغرفتها التي ولجها بلا استئذان

- آسف، لم أقصد إيقاظك.

اعتدلت (روحية) بسريرها وهى تراقب بعينها – التي تلتقط كل ما هو فوق الطبيعة – شبح (تيمور) يطوف هائماً بغرفتها.

انتشلت شالها وغطت به رأسها المشوهة خافية تعريجاتها التي في العادة ترعب من يراها للمرة الأولى ولكن (تيمور)

كان مهذباً بما يكفي حتى لا يحدق بها ويشعرها بأنها غريبة المظهر.

- كيف وصلت لمنزلي؟

- دلني عليه أحد رفاقك.

- أيهم؟

دس يديه بجيب سرواله البرتقالي المنفوش وتكلم على مهل مستنداً على الحائط المقابل للفراش

- هل تعاملتِ مع شبح مثلي من قبل؟

- أجل.

- هل قص عليكِ أحدهم ماذا يحدث لأمثالنا بالنهاية؟ أعني.. بعد أن نموت؟

- هذا بعلم الغيب.

- توقعتُ أن تكون هذه إجابتك.

- أعتقد أنك تريد مساعدتي يا فتى.

- أجل، أنتِ أكثرهم حكمة وأنا بحاجة للإرشاد.. لقد استوعبتُ للتو أنني ميت ولكنني لم أظن أن هناك إمكانية للروح أن تطوف بالحياة، ظننتُ المرء يموت فيفنى زفر

بضيق: أود أن ينتهي الأمر، لستُ ميتاً ولا حياً، أشعر أني كحقيبة بلاستيكية هائمة بالأفق لا أرض ولا سماء لها.

- يمكنني أن أعيدكما.

- (جيهان) لا تثق بكما وتود البقاء وأنا لن أرحل دونها.

- لِمَ لا تقنعها بالعدول عن قرارها؟

- لأن عِندها يدفعني للجنون، نحن نتشاجر كل ليلة منذ أن قذفنا إلى هذه الدنيا الملعونة.. ليتها تفهم كم أكره البقاء بهذا العالم الدامي وأصوات الأطفال الذين يبكون ليلاً نهاراً بعد تلك الطفرة السكانية التي أصابت الحي ثم دماء هؤلاء الذين قتلوا منذ أن أتينا إلى هنا.. الوضع لعين.

- علها متعلقة بهذا العالم لأنها تود تعطيل عقابك بالآخرة.

تنهد ثم تحسس رأسه الحليق بقلق وهو ينظر أرضاً بخزي

- أتظنين أن الذي أرتكب جريمة عن عمد سيتساوى حسابه مع الذي أزهق روحاً وهو غائب عن وعيه؟

- الإجابة عند الله.

هز رأسه موافقاً وأطرق للأرض محبطاً

- أصحيحٌ أن انتحاري تصدر الأخبار بالثمانينات والناس

يدعونني بسفاح الأطفال؟

- أليست هذه الحقيقة؟

ابتسم ابتسامة مريرة

- الحقيقة أمر نسبي يا سيدتي.

- لقد قابل الشباب (ناهد) اليوم وروت لهما كل شئ.. أنا متفهمة ما مررتَ به يا بُني.

ابتسم ساخراً

- وكيف ذلك؟

- لقد فررتُ من الموت بمعجزة مثلك.. هربتُ من مجرم حطم جمجمتي بمطرقته إلا أن الله سلمني، صحيحٌ أنه أفقدني نظري ولكنه لم يُفقدني حياتي.

- ولكنني فقدتُ كل شئ. لقد هربتُ من ساحة حرب حتى أدفن نفسي حياً. فررتُ من أن أُقتَل ولكني لم أنجُ من الموت.

لمعت عيناه بالدموع فحاول أن يخفي شفقته على نفسه بنصف ابتسامة مريرة

- كل ما في الأمر أنني مصدوم من نفسي.. ظننتني أقوى من ذلك.

- كلنا نرى أنفسنا أبطالاً، ولكن في الحقيقة، ما من غالب لقدره مهما بلغت قوته.

- أنتِ محققة.. إذاً، بما أنكم قابلتم (ناهد).. هل غفرت لي ما فعلته بابنها؟

- ألا يكفي أن (جيهان) سامحتك على قتلك لها؟

ازدادت مرارة ابتسامته

- بصيرتك خانتك هذه المرة.

- إذاً صحح لي رؤيتي، من قتلها؟

- وما الأهمية؟ هل معرفة القاتل سيعيدها للحياة؟ هل ستبعث أرواح هؤلاء الأطفال مجدداً؟ هل تلك المعلومة ستعيد الزمن لما قبل مجزرة ديسكو الكينج وتجعلني أنصت لحدسها وأبقى معها بالمنزل بدلاً من الذهاب لذاك الحفل اللعين؟.. لقد خربَ كل شئ وما من مصلح له والبقاء بهذا العالم لن يجلب لنا سوى المزيد من الدمار المعنوي لذا، إليكِ الأمر، سأقنع (جيهان) بالرحيل معي وأنتم تفتحون لنا تلك البوابة اللعينة ولكن أقسم لكِ إن حاولتِ التلاعب بنا أو استغلالنا لأي من أعمالكم الروحية المشبوهة فتلك المرة لن تقابلون غضب (جيهان) وحدها.

- لا داعي للتهديد يا فتى، نتشوق لرحيلكما أكثر منك.

- إذاً، سأعتبر هذه كلمة شرف منك نظر ليمينه ثم أردف: والآن، سأدعك مع أصدقاءك.

نفذ من الحائط كما ولج فاختفى ثم رنّ جرس بابها.

وضعت نظارتها الشمسية السوداء لتخفي عينيها المشوهتين واتجهت للباب بخطوات ثقيلة.

كان الثلاث عند عتبتها فبدأت (زينب) بالحديث

- نعتذر لقدومنا دون سابق إنذار ولكننا..

قاطعها (موسى) الفظ داخلاً المنزل بلا أذن

- لن نتحدث بأمر كهذا على السلم.

ابتعدت (روحية) عن الباب سامحة لهم بالدخول

- ما الأمر؟

اندفع (رأفت) بالحديث كعادته حين يتوصل لاكتشاف هام

- حسناً، لقد قضيث اليوم كله بالعصف الذهني، وفككث عناصر قضية (جيهان) و(تيمور) وأعدتها للصفر وقمث بـ..

قاطعه (موسى) بضجر

دوحة الكتب حرامية

- لِمَ لا تدخل بصلب الموضوع؟

- حسناً عدل ملابسه محرجاً: وفقاً لما روته (مليكة)، لقد انزعج (تيمور) بشدة حين سمع صوت بكاء ابنتها ولكن من الذي هاجمها وكان يود قتلها هي ورضيعتها؟ لم يترك لهم الفرصة أن يجيبوا فأردف سريعاً: إذا جمعنا ما روته (ناهد) وما حكته (مليكة) سنتوصل لإجابة واحدة.

صاح به (موسى)

- يا أخي كفاك تشويقاً رخيصاً، فلتدلِ بدلوك على عجل.

- حسناً، حسناً.. أعلم أنكم ستدعونني بالمجنون ولكن فلتروا الأمر من زاويتي..

أصغوا لتحليله ووزنوه، وبعد إجابته على أسئلتهم، تبنوا جميعاً نظريته.

فـ(رأفت) هو كنغمة التنور، صحيح أنها نبرة صوتية ذكورية وسطى قد تتوه بين باقي أصوات الكورال، إلا أنك إذا أنصت لها على حدى، ستجدها أعلاهم وأصوبهم.

# (٩)

# مقام الصبا

يزعمون أنه كلما اقتربت من الصورة، قلت جودتها.

لم تؤمن (روحية) بتلك النظرية أبداً، آمنت بأنه كلما اقتربت من الصورة انبهرت بتفاصيلها تماماً كانبهارها بتحليل (رأفت) للوضع الذي وجدته بغاية المنطقية والميلودرامية في الوقت ذاته.

حين نظرت لقصة (جيهان) و(تيمور) من الزاوية التي اقترحها (رأفت)، أدركت أن حكايتهما أحزن من مقام الصبا الذي تشعر فيه أن الآلات تبكي على لحن هو الأكثر شجناً بين المقامات الموسيقية كلها.

وصل الأربعة للفيلا البرتقالية، ولكنهم لم يسمعوا موسيقى الروك أند الرول كالمعتاد، بل صياح وأشياء تتكسر.

كلما علا صياح (تيمور) و(جيهان)، زادت صعوبة تنفس الرفاق الأربع ولكن (موسى) كعادته، قاد الجمع وصولاً للقبو حيث يدور الشجار.

كان (تيمور) واقفاً بالزاوية يشاهد (جيهان) التي فقدت أعصابها وأمسكت عصا الميكروفون الحديدية وحاولت أن

دودة الكتب العراقية

تهشم زجاج الستوديو ولكنه لم يُحطم فزفر (تيمور) ضجراً

- إنه زجاج ضد الكسر، لن يحطم.

صاحت به

- أتتحداني؟

- يا إلهي.. لِمَ ظننتُ أن الموت سيزيدك عقلاً؟

- ولِمَ ظننته سيزيدك نخوة؟

- توقفي عن استفزازي.. أستشاجريني حتى ونحن موتى؟

- أقلع عن استخدام تلك الكلمة السخيفة، ألا يكفي بشاعة مظهري؟

- لا آراكِ بشعة ولكن ما تفعلينه الآن هو أبشع مما يستوعبه عقلي.

- ولِمَ أفعل كل هذا؟ أليس خوفاً عليك؟

- تخافين تأثير بكاء الأطفال عليّ ولا تبالين بهول منظر الدماء وأزيز الرصاص عليّ؟

تهربت من جملته الموزونة بأن صاحت به

- (تيمور) لدي ما يكفيني، هناك طلقة تخترق رأسي وأخرى بمنتصف صدري ووجهي صار بشعاً فكفى، لم يعد لدى طاقة

لمجادلتك.

- لا أبالي بمظهرك.. مازلتِ صغيرتي الشقراء ذات اللسان السليط.

زفرت وألقت بعصا الميكروفون جانباً ثم جلست على الأرض مستندة على الحائط المبطن

- كيف أمسينا هكذا؟

- لا تجربي هذا السؤال، ستشفطك دوامة لم أقدر على الخروج منها حين طرحته على نفسي إلا حين ابتلعت السُم لأخلص روحي من عذاب الضمير وما كانت النتيجة؟.. العلوق بهذا العالم كروحين قاتلتين مشوهتي المظهر ضحك بتوتر وارتباك: بعد أن كنا ننشر الموسيقى والمرح والفن، صار مجرد النظر إلينا لهو قادر على بث الرعب بالقلوب.

- ما كان علىّ أن أتركك بمفردك مع الأولاد.

- صغيرتي، لو علمني الموت شيئاً فهو أن للقدر حتمية لا جدال بها.. لا داعي للندب الآن.. فلنمضي قدماً ونكتشف عاقبتنا.

- كلا يا (تيمور) نهضت غاضبة: لن أرحل قبل أن أثأر لنفسي.

- مِمَن يا (جيهان)؟ افهمي، لقد مضى أربعون عاماً على مقتلك، كل من نعرفهم إما ماتوا بسلام أو شاخوا بسعادة. الجميع استقر عدانا، مازالنا الثنائي الغير المتزن والزوجين المضطربين.

- لستُ مضطربة.

- من تخادعين؟ كلانا يعرف ما اقترفت يداه، وفلتكن لديك ما تكفي من الشجاعة للاعتراف بذنبك.

همس (رأفت) لحليمة

- أسمعتم؟ كنت على حق.

همسات الأبله وصلت لأذني (جيهان) فانفتح الباب على مصرعيه وجعلتهم يرونها حتى تزرع الرعب بقلوبهم.

شهقت (زينب) بينما تجنب (رأفت) النظر إلى (جيهان) التي لمعت عيناها غضباً وهى تصيح

- ألم أخبركم ألا تعودوا لمنزلي؟ أمصرون على هلاككم؟.

- أنا الذي طلبت منهم الحضور.

قالها (تيمور) بهدوء فالتفتت له (جيهان) شاعرة بالخيانة

- كيف لك؟

روضة الكتب حراجية

- حسناً، لقد طاوعت جنونك بما يكفي ولكن قُضي الأمر. سنرحل الآن.

- طبعاً، الأمر يسيرٌ عليك لأنك اتخذت قرار موتك بنفسك وقررت أن تنهي حياتك بيدك بعدما خاطرتُ بنفسي لأبقيك حرا.

- ألهذا قتلتِ كل هؤلاء الأطفال يا (جيهان)؟

قالها (رأفت) بثقة وهو يعدل نظارته على أنفه.

اتسع ثقبا أنفها وقطبت حاجبيها صائحة بـ(تيمور) وهى تستشيط غضباً

- كيف تجرأ؟

اندفع (رأفت) مفسراً

- ليس هو من أخبرنا رفع رأسه مختالاً بنفسه: أنا الذي توصلتُ للأمر بنفسي.

- توصلك خاطئ يا صاح قالها (تيمور) مدافعاً عن زوجتها بنبرة محتدة: (جيهان) لم ترتكب جرماً.

- بلى قالتها (جيهان) معاندة: إن كان فعل المستحيل لحماية من نحب جرماً، فأنا أكبر مجرمة.

- (جيهان) لا تتفاخري بذلك إنك..

دودة الكتب حرامية

قالها (تيمور) ليوقفها عن الحديث ولكنها قاطعته صائحة.

- لا تُسكتني، أنا لا أهاب هؤلاء الحمقى.. فليعرفوا الحقيقة لأن قصتي ستكون آخر ما سيسمعونه.

***

**٥ أغسطس، ١٩٨٠**

أخرج (تيمور) المثلجات من المبرد كي يتناولها (مجدي) و(علي) أثناء مشاهدتهما للتلفاز.

أعد لهما جهاز الفيديو ولم يبالِ أى فيلم سيشاهدان وتركهما يلعقان المثلجات ثم نزل لقبوه ليكمل عمله على ترياق ذاك السم الذي حيره.

كانت رائحته كالسكاكر ولونه شفاف صاف كالماء ولكن مفعوله أخطر من أفعى المامبا الإفريقية فهو شديد السُمية بحيث يمكن أن يقضي على حياتك خلال ثلاثة ساعات إن قمت بلمسه فقط.

وضع الملابس الواقية والقفازات التي ستحميه ثم أعد محاليله الكيميائية مراقباً تلك المادة التي كلما تفاعلت مع السُم خضبته بلون أحمر قاني كالدماء الطازجة.

اجتاحته ذكرى ملعونة ولدت بالبغاء منذ أربع سنوات رأى

فيها بلمح البصر وجه النادلة منغمساً في بركة من الدماء ورغاوي الموت تخرج من فمها فارتعش وأغلق عينيه واضعاً السم جانباً قبل أن ترتعش يداه ويسكبه خطئاً فيُسمم نفسه.

خلع قفازيه سريعاً وأخذ بضعة أنفاس نافضاً تلك اللحظات البارقة عن خلده وهو يهز رأسه وكأن ذلك سيطرد تلك المشاهد الدموية عن تفكيره.

شعر بالتوعك وخفقان القلب فخرج من القبو واتجه لحجرته سريعاً حتى لا يلاحظ الصغيران حالته ولكنهما كانا منغمسان بمشاهدة التلفاز ولم يلمحاه وهو يركض لغرفة نومه ويغلق عليه بابه مراقباً يديه المرتعشتين والمشاهد تتسارع وهو ينصت لأزيز إطلاق الرصاص الحاد يخترق سمعه حتى تعالى الصوت واحتد وشعر أن الأمر يتعدى الهلاوس السمعية المصاحبة لحالات اضطراب ما بعد الصدمة بل كاد يجزم أن هذا الصوت بصالة بيته.

وسوس له اضطرابه أن القتلة الخمس بالصالة الآن يتبادلون إطلاق الرصاص الحى.

سال عرقه وتصاعد اختلاج أنفاسه واهتياج دقات قلبه وهو يفتح الباب على مهل.

أرد أن يُثبت لنفسه أن ما سمعه ليس حقيقياً وأنه من نسج

مخاوفه فحسب.

نظر من خلف الباب وقد كان على حق، رأى (علي) و(مجدي) يشاهدان التلفاز وهما يلهوان ويوجهان أصابعهما كالمسدس صوب بعضيهما فأدرك أن الصوت آتياً من التلفاز فتحول فزعه لغضب.

خرج من غرفة نومه وأوقف الفيلم وهو يصيح بهما

- ألم أخبركما مئة مرة أن أفلام جيمس بوند لا تناسب سنكما.

سحب الشريط وتجاهل تذمرهما وعاد لغرفته.

ألقى ببدنه المرتعش على السرير محدقاً بمروحة السقف، شاعراً أن رأسه تدور مثلها وأن مزاجه متعكراً فبحث عن مخدر.

فتح درجه كما يفعل كل جمعة، لأربع سنوات متوالية وابتلع طوابعه التي عدلها بعدما صار من اليسير الحصول على أية مواد كيميائية يبغيها من المعمل.

بعد بضعة تجارب تهدف لتقليل نوبات ذعره المتتابعة، صارت طوابعه المعدلة فتاكة المفعول تأخذه لرحلة شديدة الانفصال عن الواقع، صحيح أنها أقصر من رحلات طوابع

السيلوسيبين العادية بكثير، إلا أنها أبلغ مفعولاً وأشرس تأثيراً.

امتصها ثم شعر بوخز بلسانه يتسلل لكافة أعضاءه الداخلية وسمع نبضات قلبه وأنفاسه وأطيط بطنه وتدفق دماءه بعروقه وهدير السوائل التي تهتز بأمعاءه.

تلذذ بشعور الهدنة الذي تمنحه إياه طوابعه المهلوسة أسبوعياً وهو يرى أنواراً خافتة تحلق بسقف الغرفة المظلم والسرير يتهدج ويموج بغنج من أسفله كأنه يطفو على سطح محيط مسالم.

شعر بثقل جفنيه وارتخاء أعضاءه واستسلام مفاصله فسمح لدوامة النوم أن تبلعه.

وليته لم يفعل!

ما كان يجهله (تيمور) هو أن صحيحٌ أن طوابعه الجديدة تأخذه في رحلة سريالية استطاعت خبرته الكيميائية وتلاعبه بتركيبتها أن تزيدها قوة وجموحاً، ولكن الطريق الذي سيسلكه برحلته يعتمد كلياً عليه.

لقد تعاطى الطوابع منذ أن كان بالسادسة عشر وكان يستمتع بالإلهام الذي يجده برحلاته لأنه كان رائق البال، حسن المزاج، شاعري الخلد آنذاك ولكن منذ أن مر بتلك

الصدمة وأهمل أن يتعالج منها نفسياً وإكلينيكياً وصارت نفسه مشحونة بمشاهد دموية وعقله ملغماً بومضات مرعبة حاول كبتها وتجاهلها والسيطرة على تأثيرها عليه لأربع سنوات بلا هوادة فتحولت من قط شارع يمكن ترويضه بالعلاج لوحش ضارٍ يترصد اللحظات المواتية لينهشه.

وكانت تلك اللحظة مثالية.

مُخَدَرَاً وفاقداً السيطرة على لُبه، خلد (تيمور) للنوم نَمِلاً ولكن رحلته لم تنته.

رأى نفسه بغابة استوائية على ضفاف نهر الأمازون ونساء حضارة المايا العاريات يغتسلن بين الشلالات المتدفقة وسيقان البامبو الشامخة.

تمشى بالغابة الخضيرة متمزجاً بتغريد الطيور وهدير الماء وضحكات النساء العذبة ورائحة العشب النضرة وحرارة الشمس النيرة وحركة السحب المتغنجة.

نام على العشب وابتسم متأملاً زرقة السماء الصيفية وهو ينصت لضحكات أطفال هؤلاء النساء إلى أن باغتته الفاجعة.

رأى بندقية صيد تحلق بالأفق مقتربة منه يحملها ضبع وخنزير يركضان صوبه.

انتفض (تيمور) حين زمجر الضبع وقبع الخنزير وسال لعابهما وتضاعفت سرعتهما وهما يهجمان عليه حاملين البندقية الطويلة.

صوَّب الضبع البندقية نحو جبينه وقفز الخنزير على صدره.

أصابه الذعر وحركته غريزة البقاء للدفاع عن نفسه فلكم الخنزير ونفضه عنه فسقط المتوحش على العشب ناشجاً بينما سحب (تيمور) البندقية من يد الضبع وضربه بكعبها فسقط كصديقه واتخذ (تيمور) البندقية كمطرقة هوى بها مرات لم يحصها على رأس الضبع ولكنه كان يعلم أن علامة توقفه عن ضربه هو سماع صوت تحطم عظام جمجمته.

دوّى قباع الخنزير الصغير الذي نهض وركض مترنحاً ولكن (تيمور) هجم عليه من الخلف وباتباع الاستيراتيجية نفسها، هشم جمجمته لتخلف بركة دماء لا تختلف كثيراً عن التي سالت من رأس زميله الضبع.

وقف بمنتصف الغابة لاهثاً والدماء تملأ وجهه وكفيه وصدره وكعب البندقية وهو يراقب الحيوانين الميتين.

ظل على هذه الحالة لقرابة خمسة عشر دقيقة ثم بدأ يقل مفعول الطابع ويستيقظ من قيلولته التي انتهت منذ دقائق

طويلة دون أن يدري.

لم يكن يدرك أنه كان يسير نائماً كالعادة.. لم يعرف أن الغابة الأمازونية ليست سوى حديقة بيته الخلفية والشلالات المنهمرة ذات الهدير العذب هى صنبور الحديقة المتصل بالخرطوم الذي يسقون به العشب والذي كثيراً ما يرش به (مجدي) و(علي) نفسيهما ليستعوضا الذهاب إلى حمام السباحة صيفاً، وما البندقية الطائرة سوى بندقية صيد البط الفيومي الخاصة بـ(جيهان) التي يلهو بها العفريتان الصغيران، والضبع المزمجر هو (مجدي) ابن (ناهد) والخنزير القابع هو (علي).. ابنه.

- يا إلهي.

قالتها (جيهان) الواقفة عند الباب الخلفي للحديقة ممسكة بأكياس البقالة حين رأت المشهد.

ظلت تنظر لـ(تيمور) القابض على بندقيتها الخالية من الرصاص ثم للطفلين.

ألقت الأكياس وركضت هامسة بهلع

- ما الذي فعلته؟

جثت على ركبتها وبحثت عن نبض توقف بقلبي الطفلين

منذ قرابة النصف ساعة.

ارتعشت باكية حين لطمتها الفاجعة ومازال (تيمور) متخشباً بمكانه والبندقية بيده وهو يهمس

- لقد قتلتُ ابني.

ظل يكررها مصدوماً دون أن يصرخ أو يصيح، فقط متلبد البدن وقد تصنمت ملامحه.

دفنت (جيهان) وجهها بين يديها وهى تهتز ذهاباً وإياباً باكية بحرقة فلم تتخيل أن يصل الأمر لهذه الدرجة ولم تعلم على من تبكي، الصغيرين أم حب حياتها الذي ارتكب جريمة تعلم أن عقوبتها ستُفقده حياته.

- قتلتُ ابني بيدي.

قالها (تيمور) بشفاه متخدرة ثم صوب البندقية ناحيته ووضع فوهتها بفمه وأطلق الزناد ولكنها كانت فارغة.

انتفضت (جيهان) حين سمعت صوت طرقعة الزناد فركضت صوب (تيمور) صارخة

- إياك!.

صرخ فيها وانفجر باكياً مفجوعاً

- لقد قتلتُ ابني يا (جيهان).. حطمتُ رأسه بيدي.

- كلا.

- و(مجدي).. ماذا عن (مجدي)؟.. كيف لـ(ناهد) و(ياسر) أن يسامحاني بعد أن سلبتهما وحيدهما؟

- اسمعني.

- لقد.. لقد ائتمنتني (ناهد) على صغيرها وطلبت مني أن أعتني به وما أنا بفاعل؟ لقد قتلته.

هوّى على ركبتيه صارخاً وهو يضغط بكفيه على رأسه التي كادت أن تنفجر

- يا ويلي.. لم أعد أحتمل.. كيف لي أن أعيش بعد أن قتلتُ طفلين! كيف لي أن أتنفس بعد أن قتلتُ ابني.

- ليس ابنك.

صرخت به بحدة والدموع تسيل من عينيها.

- ليس ابنك يا (تيمور).. أنت لم تقتل ابنك.

توقف (تيمور) عن الصياح ونظر لها مرتعشاً

- ماذا.. ماذا تعنين؟

- هذا الطفل الغارق بدماءه ليس ابنك.. لقد مات ابنك

بالليلة التي هاجمتني بها بكت ولكنها حاولت أن تحافظ على وضوح كلماتها: لقد أخبرتك أنني لا أُستأمن على الأطفال ولكنك لم تصدقني، رويت لك عن مدى كرهي لهم ولكنك أصررتَ على أن تنجب مني ابناً.. ابناً كتمتُ أنا أنفاسه بيدي تماماً كما فعلتُ بأخي ولكن هذه المرة.. بكت بقوة: أقسم لك أن هذه المرة لم أكن انتوى قتل صغيرنا.. لقد جن جنونك حين سمعت بكاءه وهاجمتني بوحشية. بعد أن استفقتُ من مهاجمتك لي، نهضتُ سريعاً وانتشلته من على الأريكة ثم ركضتُ مع (ناهد) لشقتها، ظل (علي) يبكي بلا توقف أثناء نزولنا على السلم، ترجيته أن يصمت ولكنه صرخ بلا هوادة، خفتُ أن تهتاج وتنقض عليّ ثانية فوضعتُ يدي على فمه فقط لأكتم صوت بكاءه حتى أترك الشقة والسلم وأصل لشقة (ناهد) فلا يصلك بكاءه مجدداً. أقسم لك أنني لم أود سوى إسكاته ولكني لم أحسب أن يدي بهذه القوة وهذا الثِقل.. كنتُ مذعورة ولم أخال أنه قد يموت بين يدي بهذه البساطة حاولت أن تنظم أنفاسها: اكتشفتُ وفاته بعدما ضمدت لي (ناهد) جراحي وهدأت من روعي. وجدته بارداً لا يتنفس فعرفتُ جرمي ولم أفكر بشئ سواك.. كيف ستتقبل تلك الصدمة وأنت تعاني بما يكفي! فبلا تخطيط، وجدتُ نفسي آخذه وأرحل عن شقة (ناهد) بمفردي أهيم بالشوارع وهو ميتٌ على صدري، لا أعلم كيف رتبتُ الأمر ولكن

ساقتني قدماي لمشفى أبي.. تسللت للحضانة وبدلت رضيعنا الميت بآخر يشبهه بعض الشئ، جميعهم متشابهون في الأسابيع الأولى على أية حال. وحين عدتُ إليك وطلبت منك أن تحمل ابنك وتمعن به النظر، رأيت أنك لم تلاحظ فرقاً وعليه، كتمتُ السر وعليه.. أخذتْ نفساً عميقاً واعترفت: أنت لم تقتل ابننا، بل أنا.. أنا الذي قتلته.

لم يكن يفهم إن كان ما قالته حقيقياً أم أنه مازال تحت تأثير مفعول المخدر.

حاول أن ينهض مبتعداً عنها وعن الجثتين وكأنه يهرب من بشاعة ما اقترفه وصدمة ما اكتشفه ولكن ركبتاه خانتاه وسقط أرضاً وهو ينظر لـ(جيهان) مصدوماً.

جثت على ركبتيها أمامه وبكت متوسلة

- لا تنظر إلي هكذا، تكلم حتى وإن كنت تود تعنيفي ومعاقبتي على جريمتي ولكن لا تصمت هكذا.

- أعاقبك؟ من أنا لأعاقبك.. انظرى لما فعلته يداي قالها مقهوراً وهو يشير للجثتين: أنا قاتلٌ وإن كنتِ كتمتِ أنفاساً عن غير عمد، فأنا أرقتُ الدماء حتى تخضبت بها يداي.

فتح قبضتيه ليريها يديه الداميتين ثم انفجر باكياً مكرراً

- انظري، أنا قاتلٌ.. قاتلٌ يستحق الشنق.

أمسكت كفيه وعانقته فتشبث بذراعيها باكياً وهي تقول له بيأس

- لستَ قاتلاً، أنت (تيمي) حبيبي. أنت الرجل الذي فك شفرتي وآمن بي واحتواني وكان لي داراً وأهلاً وأماناً.. أنصت إلىّ رفعت رأسه وقالت بقوة وثبات: سأصلح الوضع.. سأصلح الوضع تماماً كما أصلحتني أنت.

- أصلحتك؟ وكيف ذلك؟ انظري لحالك! لقد تحولت من شابة مضطربة إلى قاتلة.

- كلا، كلا. ما حدث لكلينا لهو خارج عن إرادتنا. أقسم لك أنني..

صاح بها منفجراً

- أنتِ قتلت وحيدنا وكذبت علي لأربعة أعوام واستبدلته بغيره حتى تنتهي المأساة بأن أقتل البديل كما قتلتِ ابننا.

- لا، لا.. لا تر الأمر من هذه الزاوية.. أين ذهب تفاؤلك، يا (تيمي)؟

- اصمتي.

- لِمَ؟ ألن.. ألن ترى النور بالكون رغم أنف الظلام الذي يسود

العالم؟

- قلتُ لكِ أن تصمتي.

- ولكني سأصلح الأمر. أعدك بذلك.

- فات الأوان.

- ليس بعد.. لن أدعهم يأخذونك مني مهما كان الثمن يا (تيمور).. ابق بالمنزل واسترح، سأفاجئك بدهائي.

أخذت البندقية وتركته.

عمرتها بالرصاص الحي الذي تتدرب به على الرماية وعلقتها على كتفها ثم انتشلت منشفة مبتلة وعادت لـ(تيمور) المحدق بجثة الطفلين.

مسحت له وجهه وصدره وكفيه من الدماء ثم قبلته بحنان وابتسمت قائلة:

- هذا الأمر سينتهي وسينصلح كل شئ وسنعود لسابق عهدنا، ألم تشتق لحياة الروك أند رول؟

لم تتدارك نفسها وقتها، ولكن صدمتها لم تكن تقل عن صدمة (تيمور) حدة حين شهد مجزرة ديسكو الكينج ولكن اختلاف الطبيعة البشرية وتفاوت ردود أفعالنا تجاه ما يلطمنا من مصائب، يجعلانا نتفاعل مع الاضطرابات

والصدمات بأشكال مختلفة؛ فبعكس (تيمور) الذي آثر التكور بالزاوية وحشد مشاعره ومخاوفه بداخله ثم سجنها ظلماً حتى دفعها لتنظيم شغب ثائر أدى لتحريرها وانفجارها بغتة بين ضلوعه بتلك البشاعة التي دفع ثمنها طفلان بريئان، اختارت (جيهان) أن تتوحش وتنفذ ما اعتبرته خطة مثالية لتبرئة زوجها من الجريمة التي ارتكبها حين سار نائماً.

حامت بالجوار حتى لمحت سائق أجرة أوقف سيارته بزاوية منعزلة ليقضي حاجته.

أطلقت عليه رصاصة أنهت حياته ثم أخذت سيارته لتبدأ رحلة قنص الأطفال اللاعبين بالجوار تحت شمس أغسطس الحارقة لتنفس فيها عن كرهها للأطفال الذي ولد بداخلها يوم أخذ أخوها مكانها وقبل روح أمه التي قدمها إليه أبوها قرباناً، ونما حين صار بكاء الأطفال يكشف عن جانب هلع ضعيف مهزوز يشرخ سلام زوجها وحبيبها الداخلي ليتوج ذاك المقت يوم مات ابنها الضعيف بين يديها ليريها حقيقتها التي غلفتها بروح المغامرة والجرأة والجموح.. حقيقتها أنها (جيهان) الشابة العنيفة ذات الميول الإجرامية والنزعة للقتل.

رأت الأمهات الواقفات بالنافذة لمتابعة أطفالهن وهم يلعبون ثم تأتي سيارة أجرة الموت التي ينطلق منها

الرصاص على صغارهن من مسافة بعيدة فلم يلتقطوا رقمها أو تفاصيل ملامحها.

أحرقت قلوب الآباء على أطفالهم تماماً كما حُرِقَ قلبها على وفاة أمها وأثبتت أن ما استشعره أبوها بها من جرم شيطاني، كان حقيقياً.

كانت الخطة أن تخلق قصة قاتل متسلسل وسفاحاً يقنص الأطفال بالحي والشوارع المجاورة وأن ذاك القاتل تسلل من باب الحديقة الخلفي أثناء لعب الطفلين وقام بتحطيم جمجمتيهما ثم أطلق عليهما الرصاص كما فعل بباقي الأطفال.

وهذا ما فعلته، بعد أن أزهقت حياة خمسة عشر طفلاً لم يكن ذنبهم سوى أنهم قرروا لعب الكرة والحجلة وقفز الحبل بظهيرة جمعة صيفية على بُعد شارعين من منزل زوجين مضطربين نفسياً.

دخلت من الباب الخلفي وحمدت الله أن (تيمور) ترك الحديقة لأنه لم يكن ليحتمل رؤيتها وهى تطلق طلقة برأس كل طفل كي تشابه طريقة مقتلهما موتة باقي الأطفال بالشوارع.

دخلت البيت وتركت البندقية بالصالة باحثة عن (تيمور)

- (تيمور).. يجب أن تسمعني كي نوحد قصتنا أمام الشرطة ونتخلص من هذا المأزق.

لم تلقَ أجابة.

بحثت عنه بالمرحاض والمطبخ وغرفة النوم ولكنها لم تجده.

- (تيمور).. لا تقلق، لقد انتهى الأمر.

قلقت عليه فنزلت للقبو حيث تصورت أنها ستجده.. وقد كانت محقة.

بالبداية لم تر أحداً بالقبو المعبأ برائحة سُكرية ثقيلة لسعت عينيها وأغرقتهما بالدموع وجعلتها تسعل وترشح بعنف.

- (تيمور)!

لم تقابلها إجابة حين نادته ولكن حين أدارت ظهرها وهمت أن تخرج، لاحظته خلف المنطدة السيراميكية المستطيلة التي يجري عليها تفاعلاته الكيميائية.

ركضت صوبه صارخة وهى تناديه في حالة انهيار

- (تيمور)!.

ألقت بنفسها على الأرض الباردة أمامه وانهارت باكية وهى

تصرخ منادية باسمه حين رأت قارورة السم الفارغة بيده

- لا، لِمَ؟.. أخبرتك أني سأصلح الأمر.. لا تتركني بعد هزته وقلبها يكاد أن ينفذ من صدرها: كيف لك أن تعيدني ثانيةً لوحدتي؟ أهان عليك فراقي، يا (تيمي)؟

ألقت بنفسها فوقه وهى تبكيه وترثيه إلى أن سمعت أزيزاً يصم الآذان وشعرت بألم يباغت صدرها وسائلاً دافئاً ينهمر ليصاحب كل قطرة دماء تغادر بدنها، نفساً يخرج بلا عودة.

شهقت وهى ترفع رأسها وضاغطة على مؤخرة عنقها التي اخترقتها رصاصة لترى قاتلها ولكنها لم تلحق، لقد سقطت على وجهها أرضاً ولم تر منه سوى بطنه.

كادت أن تعافر ثانية لترى هوية قاتلها ولكنه أرداها بطلقة أخرى اخترقت صدرها ليكن آخر ما تراه هو ثيابه ويديه المغطيتين بقفازين طبيين وحذاءه.

# (١٠)
# كودة

**يونيو، ٢٠١٩**

تجمعت الدموع بعينيّ (تيمور) وخاطب (روحية) بمرارة وعتاب

- هذه تفاصيل أعافر كي أنساها منذ أن وطأت تلك الأرض.. لم يكن هذا ضمن اتفاقنا.

صفق (رأفت) مختالاً بنفسه

- آها، كنتُ واثقاً من أن تحليلي صحيح، (جيهان) هى التي ارتكبت تلك الجرائم.

صاح به (تيمور)

- صه!.

صرخت (جيهان) بعِند

- أجل، أنا التي قتلت كل هؤلاء الأطفال و إن عاد بي الدهر لحبكت الجريمة نفسها لتبرئة زوجي، كيف لي أن أتركهم يعدمونه إثر خطأ ارتكبه بسبب الرعب الذي زرعته تلك المذبحة بقلبه؟

- كفى!.

قاطعها (تيمور) بضيق ولكنها أسهبت في الإفضاء بمكنونها

- أمن العدل أن يسجن ويعاقب هو بينما مازال هؤلاء المجرمون الذين سفكوا الدماء عن عمد طلقاء أحرار طاهري السمعة؟

- قلتُ كفى!.

أكملت صياحها بالحدة نفسها

- زوجي ليس مجرماً بل ضحية الفساد والتعفن الرأسمالي.

- (جيهان).. هذا يكفي.. لقد أسفكنا ما يكفي من الدماء وعلقناها بشماعة الظروف والقدر الذي دفعتُ ثمن خيانته.

- ماذا تعني بذلك؟

- لقد كنتِ محقة، لو كان القدر دبر للقاءنا، لكنا التقينا صدفة، ولكنني غششتُ القدر وطمعتُ فيما لم يقسمه لي وأصررتُ على أن أغير مسار حبكته وهذه هى النهاية.. لو لم أصر على رسم سيناريو العزف بنادي المعادي بحفل شم النسيم حيث علمتُ من (ناهد) أنك ستكونين هناك لما ألتقينا مجدداً ولما تزوجنا ولما سالت كل تلك الدماء إثماً ولما وقع أياً من هذا الدنس.

شُدهت وسألته بمرارة

- أتعني أنك نادمٌ على الزواج بي؟

- بل نادمٌ على ثقتي المفرطة بنفسي وإيماني الجاحد بأني قادرٌ على تغيير الكون وإصلاحه.

صُدمت من تلميحه فابتعدت عنه منكسرة بينما استدار (تيمور) لـ(روحية) وأمرها

- أعيدينا لمكاننا الصحيح.

- لن أذهب معك إلى أي مكان.. لم تعد مضطراً لإصلاحي أو تحمل اضطراباتي، فلتنعم بالسلام الأبدي بمفردك.

علق بعند

- لا مانع لدى.

أجابته (روحية)

- ولكن يجب أن تعودان معاً.

صاحت (جيهان) بغضب فارتشعت المصابيح واهتزت الأرض

- كلا، لن أبرح مكاني قبل أن أثأر لموتي.

بادلها (تيمور) الصياح فتصدعت الحوائط

- ومن سيثأر للأطفال الذين أزهقتِ أرواحهم؟

- أولم يُثأر لهم بعد؟ صاحت باكية: انظر لي، لقد قُتِلت وحُرمت منك حياً وميتاً.

- وبدلاً من أن تتقبلي عقابك على كل التهم التي ألصقت بي أنا وشوهت سمعتي وحدي، تودين سفك المزيد من الدماء!

- أعتذر لمقاطعة شجاركما الضاري.

قالها (موسى) ببرود فالتفتت له (جيهان) التي اتقدت غضباً وأشهرت بندقيتها مهددةً إياه بينما وضعت (روحية) يديها بجيبها لتقبض على الملح الخشن مستعدة لهجومها عليهما في حين انكمشت (زينب) خلف (رأفت) بينما تصدع السقف.

ظل (موسى) هادئا واثقاً بحاله وهو يردف القول

- إن كان سبب بقاءك بهذا العالم هو رغبتك في الانتقام من قاتلك، فأنا أعرف هويته.

أنزلت سلاحها والتفت الجميع صوبه وهم يراقبون ما يدور متفاجئين.

أمرته (جيهان) بغضب

- فلتنطق بما تعرفه على الفور.

زفر (تيمور) معلقاً بسخرية سوداء

- رائع، المزيد من الدماء!.

- إن قاتلك لهو والد أحد الأطفال الذين قتلتهم بهذه الظهيرة المشؤومة. لقد رآك من النافذة ثم نزل سريعاً لاحقاً بكِ، تسلل وراءكِ للحديقة الخلفية، كان يرغب أن يعرف عنوانك فحسب حتى يبلغ عنك ولكنه حين رأى البندقية ملقاة جانباً سيطر عليه الغضب كما سيطرت عليكِ حمى القتل، ودفعته غريزة الانتقام للتسلل خلفك بالقبو لينتقم لابنه ثم عاد للمنزل وشنق نفسه.

- لحظة نظرت لـ(موسى) بتشكك: كيف لي أن أعرف أنك لا تخادعني حتى أرحل عنكما فحسب؟ لِمَ قد أصدق تلك المأساة الإغريقية بحق الجحيم؟

- أولم يكن القاتل يرتدي قفازين وحذاءاً رياضياً وبدلة من الجينز الداكن وقميصاً قطنياً أسوداً؟

- بلى، هذا هو.. ولكن، كيف عرفت ذلك وهو أمر لم يرد بتحقيقات الشرطة؟

- فلتدعوني بالمستبصر فأنا لم أنعت بـ(أبو المكارم) من

فراغ والآن.. أتودان العودة للانتقام من ذاك اللعين بعالم الأرواح أم ماذا؟

تمتم (تيمور) متأثراً

- بل تقصد ذاك المسكين.

صاحت به (جيهان)

- مسكين؟! ذاك المسكين الذي تتعاطف معه قتل زوجتك.

- زوجتي قتلت ابنه.. إنها عدالة السماء، يا حلوتي.

- أتشمث بمقتلي؟

- آهٍ، يا ربي! زفر (تيمور): الآن وقد عرفتِ هوية قاتلك وأيقنتِ أنه لم يعد موجوداً لتقتنصي روحه كما اقتنصت الأرواح التي من قبله.. ألا تظنين أن الوقت قد حان للحصول على القليل من السلام قبل ملاقاة الجحيم الذي ستصطلك نيرانه ناهشة عظامنا؟

علقت (روحية)

- لا تقنت من رحمة ربك، يا فتى؟

- هذا إن كنا نستحقها، يا سيدتي.. كيف لها أن تأمل الرحمة وهي لم تُقدِم على التوبة؟

زفرت (جيهان) محبطة وألقت ببندقيتها بعيداً

- ومن قال لك إني لن أقدم على التوبة؟ أتظن نفسك المؤمن الوحيد؟

- كيف وكل أفعالك تثبت تشبثك بالبقاء هنا للقتل والترهيب فحسب؟ أراقك الأمر لهذه الدرجة؟

- لقد كانت حمى وأنا..

قاطعهما (موسى) مجدداً

- جميل، جميل.. لِمَ لا تكملان معاتبتكما الزوجية – التي أثق من أنها ستنتهي بالصلح والتعانق اللطيف – بالعالم المخصص لكما حتى أعود لبيتي وألحق وجبة العشاء.

اشتعلت عيناها غضباً وهمت أن تميل لتلتقط بندقيتها ولكن (تيمور) صاح بها

- عن أى توبة كنتِ تتحدثين يا حلوة؟

تراجعت خوفاً من غضب (تيمور) ثم زفرت بضيق

- حسناً، فلتُبعدني عن ذاك العالم، فبشر هذه الألفية يجعلونني أفهم بصيرة هيتلر وسبب رغبته في إبادة البشرية جمعاء.

- وأخيراً! قالها (تيمور) وقد تنفس الصعداء ملتفتاً لـ(روحية): سيدتي، فلتنهي تلك القصة التعيسة قبل أن أفقد ما بقى من عقلي المعطوب.

انتهى الأمر بسلاسة وفرغت جلسة التحضير على خير حين التزم (موسى) بتعليماتها ثم فُتحت البوابة وعادا من حيث أتيا متشاكسين ومتجادلين كما حييا.

تكدس الأربعة بسيارة (موسى) أثناء رحيلهم عن البيت البرتقالي.

التفت (رأفت) لـ(موسى) الذي انشغل بالتدخين أثناء القيادة ثم سأله بفضول

- ظننتك ترى المستقبل وحسب، كيف علمتَ أوصاف قاتل جيهان؟

- كان تخميناً سديداً.

- مستحيل أن يكون مجرد تخمين. منذ متى وأنت تعرف قصة قاتل (جيهان)؟ ولِمَ لم تشاركنا إياها؟

- يا لك من أحمق! إنها قصة لفقتها. ألم تلاحظ الثغرات التي تملأها؟

- ولكنك وصفت القاتل بالتفصيل و(جيهان) صدقت على

وصفك.

- هذا لأن كل القتلة يلبسون القفازات من أجل البصمات، ويتشحون بالأسود، وكل الذكور بالثمانينات يفضلون البدل الجينز مثل (عادل إمام). لم أقل أية تفاصيل مميزة، هى التي تود التشبث بأية معلومة تطفيء بها نيران غيظها.

- ظننتها إحدى مكارمك.

- كلا، ولكن بمناسبة المكارم، أتودون معرفة آخر رؤياي؟

هز (رأفت) رأسه إيجاباً بحماس فضحك (موسى) ساخراً.

لقد ظن مستدعو الأرواح الأربعة أن عودة (جيهان) و(تيمور) لعالمهما هى الكودة والخاتمة الموسيقية لتلك السيمفونية المرعبة ولكن ها هو ذا المايسترو يفاجئهما بنوتة دموية جديدة.

زف لهما النبأ بلامبالاة

- هناك روحاً جديدة على وشك العبور من البوابة.

تمتم الثلاثة بنفس اللحظة

- اللعنة!

**النهاية ...**